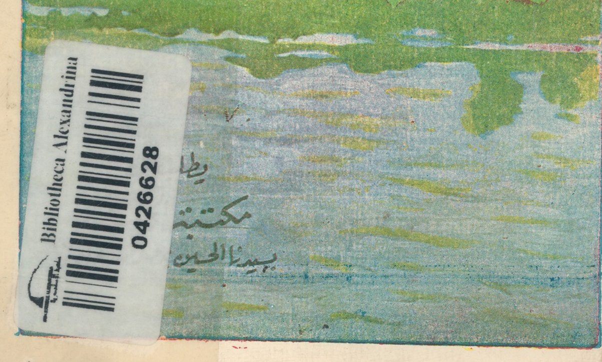
للعلامة الإمام حجة الإسلام

أبي حامد محمد بن محمد الغزالى

ميزان العمل



مطبعة الجندى بمصر



وهو الكتاب الذي يرشد إلى سعادة الآخرة

للعلامة الإمام حجة الإسلام

أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي

قدس الله روحه ونور ضريحه

كتب المقدمة ، وترجم للمؤلف ، ونوه بالكتاب

صاحب الفضيلة الأستاذ

محمد مصطفى أبو العلا

المدير المساعد للتعليم الابتدائي والخاص بالأزهر

يطلب من

مكتبة الجندي

بسيدنا الحسين بمصر ت ٧٤٥١٨

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة بها ترجمة مؤلف الكتاب

الإمام الغزالى

الحمد لله الذى بحمده تترادف النعم ، وتعم البركات المقال ، وأشهد أن لا إله إلا الله الكبير المتعال ، وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله صفوة الأقوام والرجال ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الهادين من الضلال .

أما بعد : فقد ولد الإمام أبو حامد الغزالى بمدينة طوس من مدن خراسان سنة ٤٥٠هـ[١٠٥٨م] وتوفى والده قبل بلوغه سن الرشد . فنشأ معتمدا على نفسه ، مقبلا إلى طلب العلم وتحصيله والتبحر فيه ـ بباعث من نفسه ، ودافع فطرى ، وعزم يشهد بعظم نفسه النيرة ، وقد تلقى مبادىء العربية والفقه ببلده ، وانتقل إلى جرجان ، وقرأ بها مبادىء الأصول على أحد أعلامها ، ثم عاد إلى طوس ، ولم يمكث بها طويلا بعد أوبته من جرجان ، حتى قصد نيسابور ، حيث لازم إمام الحرمين . الجوينى مدة ، انتهت بوفاة الجوينى سنة ٤٧٧ هـ ، فانتقل إلى العراق ، وقد سبقه اسمه إلى تلك الآفاق ، فاتصل بالوزير نظام الملك ، ففوض إليه مهمة التدريس بمدرسته ـ النظامية ـ ببغداد سنة ٤٨٤ هـ ، فأقام بها ينشر العلم بالتدريس ، ويصنف الكتب مدة أربع سنين ، مرض على

أثرها مرضا اضطره إلى فراق العراق ، فرحل إلى الحجاز ، وحج ، ثم جاء فلسطين ، وأقام بالقدس نحو سنتين ، ورحل إلى مصر ، فنزل بالإسكندرية وعاد بعد ذلك إلى مسقط رأسه ـ طوس ـ وانقطع للعبادة ، فألزمه فخر الملك بن نظام الملك التدريس بمدرسته بنيسابور ، فدرس بها مدة قصيرة ، ثم عاد إلى طوس ، ولزم بيته حتى مات سنة ٥٠٥ هـ [١١١١ م] ، ودفن بمقبرة الطابران بطوس ، طيب الله ثراه ، وجزاه الله خير ما جزى به عالما هدى ، وشفى ما فى النفوس من داء جهل أو شبهة ، إى وربى قل أن انتفع الناس بمؤلفات أحد من العلماء انتفاعهم بكتب الإمام الغزالى ، وقد ترجم الكثير منها إلى اللغات الأجنبية : كرسالته ـ الولد ـ المترجمة إلى الألمانية ، كالدرة الفاخرة فى أحوال الآخرة المترجمة إلى الفرنسية .

ومن حسن حظ العلم أن أكثر كتب الغزالى بقى محفوظا ، لم يصب بضياع أو اندثار ، وذلك لإقبال العلماء والمتعلمين فى أيام الغزالى ومن بعده ـ إلى نقل تلك الكتب الغزالية ، واستنساخها للإفادة منها ، ومن تلك الكتب ـ ميزان العمل الذى هو بين يديك ـ أيها القارىء ـ يأخذ بك إلى أوج السعادة ، التى هى المطلب الأسمى ، والمطلوب المرموق ، ومقصد الأولين والآخرين ، ومستحقوها هم الفائزون بأحسن الغايات ، بل لا حسن فى غاية بغير مستقر هذه الغاية الحسنى ، وحسبنا أن نضع أمام المبصر المتدبر ، ونحن نقرر ذلك ، قوله تعالى : [وأما الذين سعدوا ففى الجنة] ، وقوله تعالى : [فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز] .

[ولست أرى السعادة جمع مالٍ   ولكن التقى هو السعيد]
[وتقوى الله خير الزاد ذخراً   وعند الله للأتقى مزيد]

فطريق السعادة ـ حقا ـ هو تقوى الله تبارك وتعالى ، وقد أثر عن الإمام على رضى الله عنه وكرم الله وجهه أنه قال ، فى بيان التقوى:

(هى الخوف من الجليل . والعمل بالتنزيل . والقناعة بالقليل . والاستعداد ليوم الرحيل) .

ولقد وضع الإمام الغزالى كتابه ميزان العمل فى شرح طريق السعادة هذه ـ بطريقة واضحة ذات منهاج ، بعد أن سال قلمه ببيان أن طريقها إجمالا ـ العلم والعمل ، وقد ذكر طريق الصوفية فى عرضه العلمى ، وبحثه النورانىّ ، فأثلج الصدر ، وأنعش وأمتع ، والإمام الغزالى فى كتابه هذا ، كعادته فى كتبه ورسائله الصغيرة ـ أجمل طريقته فى التصوف بناحيته العلمية المتأثرة بعصره وبيئته ، فى بعض قوانين يسيرة يمكن للسائر فى طريق القوم معرفتها : بالتأمل اليقظ فى مقالات بيانه المشرقة فى هذا الكتاب الذى استقام به للعمل ميزان وقى الخطأ والخطل ، ولا عجب فهو يقيم الوزن بكتاب الله تعالى وسنة المرسلين وصالحى المؤمنين .

ومن الإنصاف أن الإمام الغزالى فى طريقته التصوفية حقيق بالتقدير ، ومدرسة المشيخة والإرادة ، مدرسة التصوف بالقرون الوسطى لم تخرج مثل الغزالى ، بل أكابر هذه المدرسة لم يلحقوا

بالغزالى إلا بعد أن نزعوا عنهم لباس المشيخة والإرادة ، فهذا أبو الحسن الشاذلى ، الذى نال من مكانة المشيخة أسمى مقام وتمتع مقامه من الإرادة بأغلى مرام ، حتى قال أحد من سار على طريقته :

أنا شاذلىٌّ ماحييت فإن أمت فوصيتى فى الناس أن يتشذلوا

ذلك الإمام سأله سائل : من شيخك ؟ فقال : كنت أنتسب إلى الشيخ عبدالسلام بن مشيش ، وأنا الآن لاأنتسب إلى أحد ، بل أعوم فى عشرة أبحر : محمد وأبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، وجبريل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل ، والروح الأكبر ، فذكر رضى الله عنه ـ بحر عومه الأول ـ سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم ، وقد انتقلت حال سيدى الشاذلىّ إلى تلميذه الأكبر سيدى أبى العباس المرسىّ رضى الله عنه ، فإنه لم يتفتق بالأنوار إلا من حضرة رسولنا المختار ﷺ : قال رضى الله عنه يوما : لى أربعون سنة ، ما حجبت عن رسول الله ﷺ ، ولو حجبت طرفة عين ما عددت نفسى من جملة المسلمين .

وهكذا أصحاب الهمم العلية لم يرضوا بغير النبى ﷺ إماما وأسوة حسنة وفى القرآن الكريم قال تعالى : (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا)

فالإمام الغزالى باستمداده من رسول الله ﷺ ـ سقى الناس من أصفى نبع : من النبع الأول ، الممد كل شارب قد ارتوى وأفلح وأنجح ، وفرق بين من شرب من النبع الأول ، حيث صفاء الشراب وقرب الساقى ، وبين من شرب من فروع ذلك النبع : الأنهار والمساقى ، فتغير عليه

الماء من كثرة مامر فى السبل والطرقات ، ولذلك يجد الناس فى علوم الغزالى من الصفاء والنور ماملأهم نفعا وهدى .

وإن الناظر فى كتاب ميزان العمل لواجد فيه من قوانين الأخلاق — على قلة الصفحات والأوراق — ما يبهر اللب ، ومن رفع الحجاب عن معالم طريق الصوفية ، الهادية إلى المعارف الروحانية — مايرى تلك المعالم لذى البصر : [إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب] .

وقد أشار فيه بما أغنى عن العبارة إلى بيان الأستاذ الحقيق والتلميذ المستحق لتعلم الحكمة ، وبيان حال أكثر المشايخ ورتبة العلم المقصود لذاته أو لغيره ، وقد شرح فيه مملكة البدن ، وبين قيمة العقل بين القوتين الشهوانية والغضبية — بما يهدى إلى أن يكون الإنسان ملكا كريماً ، فى صورة إنسان رحيم ، وفصل الطريق إلى تهذيب الخلق ، وبين أثر الشيخ فى ذلك ، وأخذ يبين أمهات الفضائل وما يندرج تحتها — ليكون المرء الحريص على النبل فى ذروة الفضل .

وما زال الإمام الغزالى ينظم الدر عقوداً غاليه فى فصول كتابه ، ويبين العلوم المسعدة ، ولم يبرح اليراعة فى تدبيج هذا الكتاب حتى بين طبقات الناس فى أمر الدين ، وحقيقة القرب من رب العالمين ، وأشاد بحرية الفكر والنظر ، وأقنع الناظر بالحرص على الأعمال ، الموصلة إلى دار الجلال وصفوة القول أن كتاب ميزان العمل ممتاز فى بابه ، كالإمام الغزالى صاحبه .

وإذا كان الإمام الغزالى له أشياخ تلقى عنهم العلم ، ومنهم من نقل

عنهم من قواعد التصوف ما نقل – فإنه أفاد من تربية رسول الله صلى الله عليه وسلم بإشراق أنواره فى سنته – ما جعله من صفوة كملة الهداة من أعلام الطريق إلى الحق تبارك وتعالى ، وإذا كان ابن خلدون العلامة الأشهر قد ألف رسالة فى أن الشيخ ليس بلازم فى الطريق – مع أن العلم أساس فى العمل – فليتخذ ذلك الأساس من كتب الغزالى ، وحسبك منها – أيها الموفق السعيد – كتاب ميزان العمل ، المقدم إليك ، والمشرق بيدك ، ففيه إلى طريق الحق هدايتك ، ومنه مددك – من أعذب بحر ، هدى رسولنا صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ، وهو الذى قال : « من رغب عن سنتى فليس منى » .

فمن هذا الهدى النبوى يتيسر للخواص والعلماء الذين يستطيعون دراسة السنة ، والتخلق بأخلاق النبى صلى الله عليه وسلم – أن يسلكوا طريق الحق على بصيرة ، وأن يقتبسوا من روحه ، وينهلوا من سره الأسنى ، وبهذا الهدى الأصفى تقوم للعوام الحجة ، إذا ما شرفوا بصحبة العارفين ، الذين يخلقونهم بالأوصاف المحمدية ، وهل العارفون بربهم إلا صفوة سقوا من مدد النبى الأصفى ، وإن لهم – وهم رجال الطريق الصادقون – رسالتهم فى المحافظة على عقائد المسلمين فى بعض بلاد الإسلام ، فلولا الطريقة التيجانية فى شمال أفريقية – لمزق الاستعمار عقائد المسلمين فى هذه البلاد ، وهكذا الإدريسية فى ليبيا ، والختمية فى السودان ، فالمحافظة من الحكومات الإسلامية على هذه الطرق محافظة على عقائد العامة من سموم الاستعمار ، والتبشير المسيحى

وفى خلوة الصوفية ، اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ خلا بغراء حراء ، حتى جاءه الوحى فى أول مرة به ـــ صفاء السريرة والفرار من الشواغل عن الحق .

والإسلام دين العمل والعمران ـــ لاشك ـــ يرغب أن تكون الخلوة لذلك قلبية : بالفكر والمداومة على الذكر سراً وجهراً ، فى القيام والقعود والاستقرار على الجنوب ، وفى الطريق . وفى أثناء العمل .

وبذلك يستطيع المسلم أن يكون صوفيا ، سواء أكان عالماً أم سياسياً ام صانعاً أم تاجراً أم غير ذلك ؛ فسر ـــ أيها المتدبر اليقظ ـــ بميزان العمل ـــ على صراط مستقيم ، على الشريعة ، إمامك رسول الله الصادق الأمين .

وقد جعل الله سبحانه أدوية لأمراض النفوس والأخلاق السيئة فى اتباع سنة النبى صلى الله عليه وسلم . فكل سنة دواء لمرض وخلق سيء فمن أراد التخلص من أمراضه كلها فعليه أن يقتدى برسول الله صلى الله عليه وسلم . ويتبع سنته . وفى ميزان العمل من التوجيهات لذلك ما يتحقق به شفاء النفوس .

ولست أنكر ـــ كما تجلى لك ـــ أيها المطلع على ما كتبنا ـ أن يكون للمريد فى الطريق إلى الله تعالى شيخ يسعد بكونه رفيقا له ، ولكن لا بد أن يكون عارفا بربه عليما خبيراً . ولنتدبر قوله تعالى : (علمه شديد القوى) وإما أن يكون له شيخ من أولئك الذين يجلسون، وحولهم

الأتباع ، يعاملونهم معاملة الأرقاء للسادة ، ويتصرف أولئك السادة معهم تصرفاً فيه الإذلال ، ومع ذلك اعوجاج السير والسلوك ، وإرضاء الشيطان ، وإغضاب الديان ــ فهذا ما لا نقره وليس من الهدى فى شىء (وما الله بغافل عما يعملون) .

وعندنا أن اللازم هو الشيخ المعلم للعلم الذى هو أساس العمل ، على النهج الذى رسمه الغزالى فى كتبه ، وأرشد إليه فى كتابه ميزان العمل ، الذى بين فيه ــ كما يرى القارىء ــ وظائف المعلم والمتعلم ولعل من الخير أن أكتفى فى تقديم الكتاب بما قدر ــ تسطيره فى هذه المقدمة ، وأدع عرض الكتاب بما يليق به للقارىء نفســـــه : يتصفح صحائفه ، فى إقبال ورغبة ، وينظر إلى مادبجته براعة الغزالى به باحتفاء واحتفال ، ومن لم ينظر إلى ذلك كذلك ــ بقى ــ ونعته الحرمان .

ولم يرضى العاقل لنفسه الحرمان ، وبخاصة ، من تزكية نفسه ، وصفاء حسه ــ بصالح العمل المنجى من اللهب ، وهو ــ أيضاً ــ ينيل الأرب ، ويعلى الرتب ، وليكن العاقل منتبها على الدوام لقول العزيز العلام : (من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب)

محمد مصطفى أبو العلا

المدير المساعد للتعليم الابتدائى

والتعليم الخاص المساعد بالأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الإمام الهمام حجة الإسلام زين الدين أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى الطوسى رضى الله تعالى عنه وأرضاه لما كانت السعادة التى هى مطلوب الأولين والآخرين لا تنال إلا بالعلم والعمل وافتقر كل واحد منهما إلى الإحاطة بحقيقته ومقداره ووجب معرفة العلم والتمييز بينه وبين غيره بمعيار وفرغنا منه وجب معرفة العمل المسعد والتمييز بينه وبين العمل المشقى ، فافتقر ذلك أيضاً إلى ميزان ، فأردنا أن نخوض فيه ونبين أن الفتور عن طلب السعادة حماقة ، ثم نبين أن لا طريق إلى السعادة إلا بالعلم والعمل ، ثم نبين العلم وطريق تحصيله، ثم نبين العمل المسعد وطريقه ، وكل ذلك بطريقة يترقى عن حد طريق التقليد إلى حد الوضوح لو استقصى بحقيقته وطوّل الكلام فيه ارتقى إلى حد البرهان على الشروط التى ذكرناها فى معيار العلم ، وإن كنا لسنا نطوّل الكلام به ولكن نرشد إلى أصوله وقوانينه .

﴿ بيان أن الفتور عن طلب السعادة حماقة ﴾

السعادة الأخروية التى نُعْنىَ بها بقاء بلا فناء ، ولذة بلا عناء ، وسرور بلا حزن ، وغنى بلا فقر ، وكمال بلا نقصان ، وعز بلا ذل ، وبالجملة كلما يتصور أن يكون مطلوب طالب ومرغوب راغب وذلك

أبد الآباد على وجه لا تنقصه تصرم الأحقاب والآماد ، بل لو قدرنا الدنيا مملوءة بالدرر وقدرنا طائرا يختطف فى كل ألف سنة حبة واحدة منها لفنيت الدرر - ولم ينقص من أبد الآباد شىء ، فهذا لا يحتاج إلى استحثاث على طلبه وتقبيح الفتور فيه بعد اعتقاد وجوده إذ كل عاقل يتسارع إلى أقل منه ولا يصرف عنه كون الطريق إليه متوعرا أو محوجا إلى ترك لذات الدنيا واحتمال أنواع من التعب هنا ، فإن المدة فى احتمال التعب منحصرة والفائت فيها قليل ، واللذات الدنيوية منصرمة منقضية ، والعاقل يتيسر عليه ترك القليل نقداً فى طلب إضعافه نسيئة - ولذلك ترى الخلق كلهم فى التجارات والصناعات ، وحتى فى طلب العلم يحتملون من الذل والخسران والتعب والنصب ما يعظم مقاساته طمعاً فى حصول لذة لهم فى المستقبل تزيد على ما يفوتهم فى الحال زيادة محدودة فكيف لا يسمحون بترك فى الحال لتوصل إلى مزايا غير مقدرة ولا محدودة ، ولم يخلق فى الدنيا عاقل هو حريص على طلب المال كلف بذل الدينار وانتظار شهر ليعتاض منه بعد مضى الشهر الأكسير الأعظم الذى يقلب النحاس ذهباً إبريزا ألا تسمح نفسه ببذله وإن كان ذلك فواتا فى الحال حتى ان من لم يحتمل ألم الجوع مثلا فى مثل هذه المدة ليتوصل به إلى هذه النعم الجسيمة لم يعد عاقلا ولعل ذلك لا يتصور وجوده فى الخلق مع أن الموت وراء الإنسان بالمرصاد ، والذهب لا ينفع فى الآخرة وربما يموت فى الشهر أو بعد الشهر بيوم فلا ينتفع بالذهب ، وكل ذلك لا يفتر رأيه فى البذل طمعاً فى هذا العوض ، فكيف يفتر

رأى العاقل فى مقاساة الشهوات فى أيام العمر وأقصاها مائة سنة ، والعوض الحاصل عنها سعادة لا آخر لها ، ولكن فتور الخلق عن سلوك طريق السعادة لضعف إيمانهم باليوم الآخر وإلا فالعقل الناقص قاض بالتشمير لسلوك طريق السعادة فضلا عن الكامل .

ـــ ﴿ بيان أن الفتور عن طلب الإيمان به أيضاً حماقة ﴾ ـــ

أقول إن فتور الإيمان أيضاً مع أنه من الحماقة فليس يقتضى الفتور فى سلوك سبل السعادة لولا الغفلة * فإن الناس فى أمر الآخرة أربع فرق ﴿ فرقة ﴾ اعتقدت الحشر والنشر والجنة والنار كما نطقت به الشرائع * وأفصح عن وصفه القرآن وأثبتوا اللذات الحسية التى ترجع إلى المنكوح والمطعوم والمشموم والملموس والملبوس والمنظور إليه ، واعترفوا بأنه ينضاف إلى ذلك أنواع من السرور ،وأصناف من اللذات التى لا يحيط بها وصف الواصفين ، فهى مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وأن ذلك يجرى أبداً بلا انقطاع ، وأنه لا ينال إلا بالعلم والعمل ، وهؤلاء هم المسلمون كافة بل المتبعون للأنبياء على الأكثر من اليهود والنصارى ﴿ وفرقة ثانية ﴾ وهم بعض الإلهيين الإسلاميين من الفلاسفة اعترفوا بنوع من اللذة لا تخطر على قلب بشر كيفيتها ، وسموها لذة عقلية ، وأما الحسيات فأنكروا وجودها من خارج ، ولكن أثبتوها على طريق التخيل فى حالة النوم ولكن النوم يتكدر بالتنبه ـ وذلك لا تكدر له بل هو

على التأييد ، وزعموا أن ذلك يثبت لطائفة من المشغوفين بالمحسوسات والذين التفات نفوسهم مقصور عليها ولا يسمون إلى اللذات العقلية — وهذا لا يفضى إلى أمر يوجب فتوراً فى الطلب ، فإن الالتذاذ إنما يقع بما يحصل فى نفس الإنسان من التأثر بالملموس والمنظور والمطعوم وغيره ، والشيء الخارج سبب فى حصول الأثر وليست اللذة من الأثر الخارج بل من الأثر الحاصل عند حضور الخارج ، فإذا أمكن حصول الأثر فى النفس دون الشيء الخارج كما فى حالة النوم فلا أرب فى الشيء الخارج ﴿ وفرقة ثالثة ﴾ ذهبوا إلى إنكار اللذة الحسية جملة بطريق الحقيقة والخيال ، وزعموا أن التخيل لا يحصل إلا بآلات جسمانية والموت يقطع العلاقة بين النفس والبدن الذى هو آلته فى التخييل وسائر الإحساسات ، ولا يعود قط إلى تدبير البدن بعد أن اطرحه ، فلا يبقى له إلا آلام ولذات ليست حسية ولكنها أعظم من الحسية ، فإن الإنسان فى هذا العالم أيضاً ميله إلى اللذات العقلية ، ونفرته عن الآلام العقلية أشد ـ ولذلك يكرهون فى الطلب إراقة ماء الوجه ويؤثرون الاحتراز عن الافتضاح والاستتار فى قضاء شهوة الفرج ومقاساة الآلام والمشقات ، بل قد يؤثر الإنسان ترك الطعام يوماً أو يومين ليتوصل به إلى لذة الغلبة فى الشطرنج مع حسيته ولذة الغلبة عقلية ، وقد يهجم على عدد كبير من المقاتلين ليقتل ويعتاض عنه مايقدره فى نفسه من لذة الحمد والوصف بالشجاعة ، وزعموا أن الحسيات بالإضافة إلى اللذات الكائنة فى الدار الآخرة فى غاية القصور ، ويكاد

يكون نسبتها إليها كنسبة إدراك رائحة المطعوم اللذيذ إلى ذوقه ونسبة النظر فى وجه المعشوق إلى مضاجعته ومجامعته بل أبعد منه نسبة وزعموا أن ذلك لما بعد عن فهم الجماهير مثلت لهم تلك اللذات بما عرفوها من الحسيات كما أن الصبي يشتغل بالتعلم لينال به القضاء أو الوزارة وهو لا يدرك فى الصبي لذتهما ، فيوعد بأمور يلتذ بها كثيراً (كصولجان) يلعب به أو عصفور يعبث به وأمثاله ، وأين لذة اللعب بالعصفور من لذة الملك والوزارة ؟ ولكن لما قصر فهمه عن درك الأعلى مثل بالأخس ويرغب فيه تلطفاً باستدراجه إلى ما فيه سعادته . وهذا أيضاً إذا صح فلا يوجب فتوراً فى الطلب بل يوجب زيادة الجد ، وإلى هذا ذهبت الصوفية والإلهيون من الفلاسفة من عند آخرهم حتى ان مشايخ الصوفية صرحوا ولم يتحاشوا ، وقالوا من يعبد الله لطلب الجنة أو للحذر من النار فهو لئيم ، وإنما مطلب القاصدين إلى الله أمر أشرف من هذا . ومن رأى مشايخهم وبحث عن معتقداتهم وتصفح كتب المصنفين منهم فهم هذا الاعتقاد من مجارى أحوالهم على القطع ﴿وفرقة رابعة﴾ وهم جماهير من الحمقى لا يعرفون بأسمائهم ولا يعدون فى زمرة النظار ذهبوا إلى أن الموت عدم محض ، وأن الطاعة والمعصية لا عاقبة لهما ، ويرجع الإنسان بعد موته إلى العدم كما كان قبل وجوده ، وهؤلاء لا يحل تسميتهم فرقة ، فإن الفرقة عبارة عن جمع وليس هذا مذهب جمع ولا منسوبا إلى ناظر معروف بل هو معتقد أحمق بطال غلبت عليه شهوته ، واستولى عليه شيطانه ، فلم يقدر على قمع

هواه ، ولم تسمح له رعونته بأن يعترف بالعجز عن مقاومة الهوى ، فيتعلل لنقصانه بأن ذلك واجب وأنه الحق ، ثم أحب أن يساعده غيره فدعا إلى البطالة وما جبلت عليه النفس من اتباع الهوى الذى هو أشد حامل الأحمق على المسارعة إلى التصديق به لا سيما وقد يحتال بعض الفسقة بنسبة هذا المعتقد إلى معروف بدقائق العلوم كأرسطوطاليس وأفلاطون أو إلى فرقة كالفلاسفة ، ويستدرج السامع بأن معرفتك لا تزيد على معرفتهم ، وقد بحثوا زمانا وما تحصلوا على طائل ولا يشعر ذلك المسكين بتلبيسه فيصدقه لموافقته طبعه ولا يطالبه بالبرهان فى نقل المذهب عمن نقله ، ولو أخبره بأثر يتعلق به خسران درهم لكان لا يصدقه إلا ببرهان ولو قال إن أباك أقر لفلان بعشرة الدراهم التى خلفها لك ومعه به سجل فيه خط الشهود لقال ما الحجة فيه وأين الشاهد الحى الذى يشهد به ، وأى خبر فى السجل المكتوب وفى نقل الخطوط ، ثم يصدقه فى نقل مذهب من سماه من غير شاهدين يشهدان على سماعه ، ومن غير عرض خط ذلك المذكور ، ومن غير عرض تصنيف من تصانيفه ولو بخط غيره ثم لو سمع ذلك المذكور بأذنه يصرح بذلك لكان ينبغى أن يتوقف فى القبول زاعما أنه لا برهان عليه وإن كان أخذه تقليداً ، فتقليد الأنبياء والأولياء والعلماء بل تقليد الجماهير والدهماء من الخلق أولى من تقليد واحد ليس معصوماً من الخطأ فأنت الآن أيها المسترشد بعد أن عرفت هذه المعتقدات لا يخلو حالك فى اعتقاد الفرقة الضالة عن أربعة أقسام ، إما أن تكون قاطعا ببطلانه أو ظانا

لبطلانه أو ظانا لصحته ظنا غالباً ومجوزا لبطلانه بطريق الإمكان البعيد أو قاطعا بصحته وكيف ما كنت فعقلك يوجب عليك الاشتغال بالعلم والعمل والإعراض عن ملاذ الدنيا إن سلم عليك عقلك وصحت خبرتك ـ وذلك لا يخفى إن كنت قاطعاً ببطلانه وإن كنت تظن بطلانه ظناً غالبا تقاضاك عقلك التشمير فى طلبه كما يتقاضى العقل تجشم المصاعب فى ركوب البحر لطلب الربح ، وفى تعلم العلم فى أول الشباب لطلب الرياسة عند من يطلبها ، وفى نيل الوزارة أو باب من أبواب الكرامة بمقاساة مقدماتها ، وعواقب تلك الأمور مظنونة وليست مقطوعا بها بل إذا غلب على ظن الحريص على الدنيا أن الكيميا له وجود ويحتمل عنده عدمها وعلم أن تعب شهر يوصله إليها إن كان لها وجود ثم يتنعم بها بقية عمره الذى يمكن أن يكون أقل من شهر وأن يكون كثيراً تقاضاه عقله أن يحتمل التعب فى ذلك الشهر ويستحقره وإن كان معلوما وعاجلا بالإضافة إلى ما يظنه وإن كان آجلا ولم يكن مقطوعاً به ، وإن كنت تظن صحته ظناً غالباً ولكن بقى فى نفسك تجويز صدق الأنبياء والأولياء وجماهير العلماء ولو على بعد ، فعقلك أيضاً يتقاضاك سلوك طريق الأمن واجتناب مثل هذا الخطر الهائل ، فإنك لو كنت فى جوار ملك وأمكنك أن تتعاطى فى واحد من محارمه مثلا عملا من الأعمال تظن ظناً غالباً أنه يقع منه موقع الرضى فيعطيك عليه خلعة ودينارا ويحتمل احتمالا على خلاف الظن الغالب أنه يقع منه موقع السخط فينكل بك ويفضحك ويديم عقوبتك طول عمرك ، أشار عليك عقلك

بأن الصواب أن لا تقتحم هذا الخطر فإنك إن فعلت وأصبت فزيته دينار لا يطول بقاؤه معك وإن أخطأت فنكاله عظيم يبقى معك طول عمرك فليس تفي ثمرة صوابه بغائلة خطئه ، ولذلك إذا وجدت طعاماً وأخبرك جماعة بأنه مسموم أو شخص واحد حاله دون حال نبيّ واحد فضلا عن أن يقدر على التأييد بالمعجزة وغلب على ظنك كذبه كما غلب على ظنك الآن كذب الأنبياء كلهم ولكن جوزت مع ذلك صدقه وعلمت أنه ليس في أكله إلا التلذذ بطعمه وحلاوته وقت الذوق وإن كان مسموماً ففيه الهلاك ، فعقلك أيضاً يشير عليك باجتناب الخطر إن كنت من زمرة العقلاء ، ولهذا قال علي رضي الله تعالى عنه لمن كان يشاغبه ويماريه في أمر الآخرة إن كان الأمر على ما زعمت تخلصنا جميعاً ، وإن كان الأمر كما قلت فقد هلكت ونجوت ، ولا ينبغي أن تظن أن هذا تشكيك منه في اليوم الآخر ولكنه زجر على حد جهل المخاطب القاصر عن معرفة ذلك بطريق البرهان وهو الذي جرأنا على سلوك هذا المنهاج ليسهل تأمله على أهل البطالة والتقصير في الطاعة لله تعالى ، وقد تبين على القطع أن العظيم الهائل إن لم يكن معلوما فبالاحتمال يتقدم على اليقين المستحقر لأن كون الشيء مستحقراً أو عظيما بالإضافة فلتنظر إلى منتهى العمر وما يصفو من الدنيا للمترفهين وتسير إلى ما اعتقده الفرق الثلاث من كمال السعادة الأخروية ودوامها وتعرف بالبديهة استحقار ما ترك من الدنيا في عظيم ما يعتاض عنها بالإضافة إليها ، وإن كنت في الحالة الرابعة وهي اعتقاد صحة مذهب الفرقة الرابعة فنخاطبك على حد جهلك وقصورك بوجهين :

أحدهما : إنك لم تعتقد هذا المعتقد ببرهان حقيق ضرورى لايمكن الغلط فيه حتى يقال تنبهت لنوع من الدليل غفل عنه الأنبياء والأولياء والحكماء وكافة العقلاء ، فإن الغلط إذا تطرق لهؤلاء مع كثرتهم وغزارة علومهم وطول نظرهم وكثرة معجزات أنبيائهم فبماذا تأمن الغلط فى اعتقادك وما الذى عصمك ، وأقل درجاتك أن يجوز الغلط على نفسك ، وإن احتمل عندك صدق الجماهير وغلطك التحقت بالحالة الثالثة ، وإن لم تتسع نفسك لهذا التجويز حتى زعمت أنك عرفت بطلان اعتقاد الجماهير واستحالة كون النفس جوهراً باقياً بعد الموت أو معاداً بطريق البعث والنشور كما عرفت أن الاثنين أكثر من الواحد وأن السواد والبياض لا يجتمعان ، فهذا الآن من سوء المزاج وركاكة العقل ويبعد مثل هذا الأحمق عن قبول العلاج ولمثل هذا قال الله تعالى فيهم (أولئك كالأنعام بل هم أضل) .

الوجه الثانى : إن هذه الفرقة وإن أنكروا السعادة الأخروية فلم ينكروا السعادة الدنيوية ، وأعلى السعادات الدنيوية العزة والكرامة والمكانة والقدرة والسلامة من الغموم والهموم ودوام الراحة والسرور ، وهذا أيضا لا يفوز به الإنسان إلا بالعلم والعمل . أما العلم فليس يخفى دوام العز به إذ لا يقبل العزل والإبطال بعزل الولاة وإبطالهم ، ولا يخفى لذة العالم فى علمه وفيما ينكشف له فى كل لحظة من مشكلات الأمور لاسيما إذا كان فى ملكوت السموات والأرض والأمور الإلهية وهذا لا يعرفه من لم يذق لذة انكشاف المشكلات ،

ثم إنها لذة لا نهاية لها لأن العلوم لا نهاية لها ولا مزاحمة فيها لأن المعلومات تتسع للطلاب وإن كثروا بل استئناس العالم يزيد بكثرة شركائه إذا كان يقصد ذات العلم لاحطام الدنيا ورئاستها ، فإن الدنيا هي التي تضيق بالمزاحمة بل يزداد سعة بكثرة الطلاب ، ثم مع إنها أوفى اللذات عند من أنس بها فهي أدومها إذ المنعم بها عليه هو الله وملائكته ولكن عند اكبابه على الطلب وتجرده له — ولذلك لاترى جماعة من الرؤساء والولاة إلا وهم في خوف العزل يتشوقون أن يكون عزهم كعز العلماء ، وأما العمل فلسنا نعني به إلا رياضة الشهوات النفسانية وضبط الغضب وكسر هذه الصفات لتصير مذعنة للعقل غير مستولية عليه ومستسخرة له في ترتيب الحيل الموصلة إلى قضاء الأوطار ، فإن من قهر شهواته فهو الحر على التحقيق بل هو الملك — ولذلك قال بعض الزهاد لبعض الملوك ملكي أعظم من ملكك ، فقال كيف قال (من أنت عبده عبدي) وأراد به أنه عبد شهواته ، وشهواته صارت مقهورة له فعبد الشهوات العاجز عن كسرها وقهرها رقيق وأسير بالطبع لا يزال في عناء دائم وتعب متواتر أن قضى وطره يوماً عجز عنه أياماً ، ثم لا يخلو في قضائه عن اخطار وعلائق ومشاق يضطر إلى تقلدها ، فتقليل الشهوات تقليل لأسباب الغموم ولا سبيل إلى إماطتها إلا بالرياضة والمجاهدة وهو المراد بالعمل فإذاً العالم العامل أحسن الناس حالا عند من رأى السعادة مقصورة على الدنيا ، فإن الدنيا ليست تصفو لأحد وليس يفي جدواها بمشاقها ، فالممعن في اتباع الشهوات

والمعرض عن النظر فى المعقولات شقى فى الدنيا باتفاق ، وشقى فى الآخرة عند الفرق الثلاث إلا عند شرذمة من الحمقى لا يوبه لهم ولا يعبأ بهم ولا يعدون فى جملة العقلاء رأساً ، فقد تبين أن الاستعداد للآخرة بالعلم والعمل ضرورى فى العقل ، وأن المقصر فيه جاهل فإن قلت فما بال أكثر الناس مقصرين فيه وهم مؤمنون بالآخرة .

(فاعلم) أن سبب ذلك الغفلة عن التفكر فى هذه الأمور التى ذكرناها فإن تلك الغفلة مطردة عليهم مستغرقة لأوقاتهم لا ينتبهون عنها ما دامت الشهوات متوالية وهى كذلك وإنما المنبه عليها واعظ زكىّ السيرة ، وقد خلت البلاد عنه وإن فرض على ندور لم يلتفت إليه وإن التفت إليه ووقع الإحساس به فى الحال وحسن العزم على التجرد للطاعة فى الاستقبال هجمت عقب ذلك شهوة من الشهوات وأزالت أثر التنبيه وأعادت حجاب الغفلة وعاد العاقل لما نهى عنه ولا يزال هكذا شأن كل واحد إلى الموت ، وعند ذلك لا يبقى له إلا التحسر بعد الفوت ، ولا يغنى ذلك عنه شيئا ، فنعوذ بالله من الغفلة فإنها منشأ كل شقاوة .

(بيان أن طريق السعادة العلم والعمل)

فإن قلت قد اتضح لى أن سلوك سبيل السعادة حزم العقلاء ، والتهاون بها غفلة الجهال ولكن كيف يسلك الطريق من لا يعرفه ، فبماذا أعلم بأن العلم والعمل هو الطريق حتى أشتغل به فلك فى معرفته طريقان (أحدهما) جلى يناسب المنهاج السابق وهو أن تلتفت إلى

ما اتفق عليه آراء الفرق الثلاث وقد أجمعوا على أن الفوز والنجاة لا تحصل إلا بالعلم والعمل جميعا وإن اتفقوا على أن العلم أشرف من العمل ، وكأن العمل متمم له وسائق بالعالم إلى أن يقع موقعه ولأجله قال الله تعالى (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) والكلم الطيب يرجع إلى العلم عند البحث فهو الذى يصعد ويقع الموقع ، والعمل كالخادم له يرفعه ويحمله ، وهذا تنبيه على علو رتبة العلم ، ومذهب الفرقة الأولى وهم المتمسكون بالمفهوم الأول للجماهير من ظواهر الشرع غير خاف ربطه النجاة بالعلم والعمل وبيانه لا يمكن أن يحصى ، والصوفية والفلاسفة الذين آمنوا بالله واليوم الآخر على الجملة وإن اختلفوا فى الكيفية كلهم متفقون على أن السعادة فى العلم والعبادة. وإنما نظارهم فى تفصيل العلم والعمل والتوقف مع هذا الاتفاق حمق ، فمن استولت عليه علة واتفق كتب الأطباء وأقوالهم مع اختلاف أصنافهم على أن النافع لهذه العلة المبردات فتوقف المريض فيه سفه فى عقله بل يقتضى العقل المبادرة إليه ، نعم ربما يكون له طريق بعد ذلك إلى أن يتحقق ذلك لا عن تقليد للجماهير بل عن تحقيق لحقيقة العلة ووجه مناسبة المبردات لإزالتها فينتهض بصيرا إذا نظر واستقل وترقى عن حضيض التقليد والاتباع إلى ذروة الاستبصار — فكذلك قد ادعى الصوفية وفرق سواهم أنه يمكن الوصول إلى درك ذلك بالبصيرة والتحقيق وذلك أن تعرف حقيقة الموت وأنه يرجع إلى خروج الآلة عن الصلاح للاستعمال لا إلى انعدام المستعمل (ثم تعلم) أن سعادة

كل شيء ولذته وراحته فى وصوله إلى كماله الخاص به (ثم تعلم) أن الكمال الخاص بالإنسان هو إدراك حقيقة العقليات على ماهى عليه دون المتوهمات والحسيات التى يشاركه الحيوانات فيها (ثم تعلم) أن النفس بالذات متعطشة إليه، وبالفطرة مستعدة له، وإنما يصرفها عنه اشتغالها بشهوات البدن وعوارضه مهما استولت عليه ومهما كسر الشهوة وقهرها وخلص العقل عن رقها واستعبادها إياه، وأكب بالتفكر والنظر على مطالعة ملكوت السموات والأرض بل على مطالعة نفسه وما خلق فيها من العجائب فقد وصل إلى كماله الخاص، وقد سعد فى الدنيا إذ لا معنى للسعادة إلا نيل النفس كمالها الممكن لها وإن كانت درجات الكمال لا تنحصر ولكن لا يشعر بتلك اللذة مادام فى هذا العالم ممنوعاً بالحس والتخيل وعوارض النفس كالذى عُرّض للمطعم الألذ وفى ذوقه خدرٌ فيزول فيشعر باللذة المفرطة، فالموت مثل زوال الخدر فقد سمعتُ مقدّما من متبوعى الصوفية يصرح بأن السالك إلى الله تعالى يرى الجنة وهو فى الدنيا والفردوس الأعلى معه فى قلبه إن أمكنه الوصول إليه، وإنما الوصول إليه بالتجرد عن علائق الدنيا والاكباب بجملة همته على التفكر فى الأمور الإلهية حتى ينكشف له بالإلهام الإلهى جليها — وذلك عند تصفية نفسه عن هذه الكدورات، والوصول إلى ذلك هو السعادة والعمل هو المعين على الوصول إليه، فهؤلاء فرقة ادعوا المعرفة بمناسبة العلم والعمل السعادة — فهذا هو المنهج الثانى فى الوصول إلى اليقين، فما قالوه سديد

وهو بزعمهم لا يعرف إلا بالمجاهدة والرياضة كما قال الله تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) فعليك بالمجاهدة والتجرد للطلب ، فربما ينكشف لك حقيقة الحال بالنفى أو الإثبات ويكفيك فى الشروع فى العلم والعمل اتفاق الثلاث عليه إذ لم يكن غرضك من السؤال الجدال بل كان غرضك طلب الفوز كالمريض الذى يطلب الشفاء دون الجدال إذ بغيته اتفاق أصناف الأطباء فيه .

(بيان تزكية النفس وقواها أخلاقها على سبيل المثال والاجمال)

فإن قلت قد اتضح لى أن الاشتغال بالعلم والعمل واجب ولكن العلوم كثيرة وكذلك الأعمال فهى مختلفة بالنوع ثم المقدار ، وليس يكفى العلم بأن العلة يلائمها المبردات مالم يعلم نوع المبرد وقدره ووقت استعماله فى الموالات أو التفريق إلى غير ذلك مما يتطرق إلى تفاصيل اضطرارية فلا بد من بيان النوع وبيان الكمية فى الاشتغال به .

(فاعلم) أن الناس فيما سألته فريقان ، قانع بالتقليد وهو مستغن عن البحث ولكن ينهج السبيل الذى رسمه له مقلده ، وفريق آخر لا يقلدون تقليد المريض للطبيب بل يتشوقون إلى أن ينالوا رتبة الأطباء ، والخطب فى هذا عظيم والمدى طويل وشروط هذا الأمر لا تظهر فى الأعصار إلا لواحد فرد شاذ ، ولكنا ننبئك بما يرقيك عن حضيض التقليد ويهديك إلى سواء الطريق ، فإن ساعدك التوفيق

وانبعث من نفسك داعية الاستتمام توصلت إليه بالمجاهدة ولا يمكنك معرفة ما تطلبه إلا بأن تعرف أولا نفسك وقواها وخواصها فكيف يشتغل بمخالطة زيد من لا يعرف زيدا والمجاهدة معالجة للنفس بتزكيتها لتفضى إلى الفلاح كما قال الله تعالى (قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) ومن لم يعرف الثوب لا يتصور منه إزالة وسخه ، ولما كان ملاك الأمر معرفة النفس عظم الله أمره ونسبه إلى نفسه تخصيصا وإكراما فقال تعالى (إنى خالق بشرا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحى) فنبه على أن الإنسان مخلوق من جسم مدرك بالبصر ونفس مدركة بالعقل والبصيرة لا بالحواس وأضاف جسده إلى الطين وروحه إلى نفسه وأراد بالروح ماتعنيه بالنفس منبها لأرباب البصائر أن النفس الإنسانية من الأمور الإلهية وأنها أجل وأرفع من الأجسام الخسيسة الأرضية ولذلك قال تعالى (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى) وقيل كان فى كتب الله المنزلة إعرف نفسك يا إنسان تعرف ربك ، وقال عليه السلام (أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه) وقال تعالى (ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم) تنبيها على تلازم الأمرين وأن نسيان أحدهما مع نسيان الآخر ولذلك قال تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم) وقال تعالى (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) وما أراد به ظاهر الجسد فإن ذلك يبصره البهائم فضلا عن الناس وعلى الجملة من جهل نفسه فهو بغيره أجهل ومن رحمة الله على عباده أن جمع فى شخص الإنسان على صغر حجمه من

العجائب مايكاد بوصفه يوازى عجائب كل العالم حتى كأنه نسخة مختصرة من هيئة العالم ليتوصل الإنسان بالتفكر فيها إلى العلم بالله عز وجل فإن قلت فصف لى من أمر النفس جملة مشوقة إلى التفصيل إن لم تقدر على استقصاء القول فيه حذرا من التطويل (فاعلم) أن للنفس الحيوانية بالجملة قوتين إحداهما محركة والأخرى مدركة والمحركة قسمان باعثة ومباشرة للحركة فالمباشرة للحركة هى القوة التى تنبث فى الأعصاب والعضلات ومن شأنها أن تشنج العضلات فتجذب الأوتار والرباطات المتصلة بالأعصاب إلى نحو جهة المبدأ أو ترخيها فتصير الأعصاب والرباطات إلى خلاف جهة المبدأ وهذه خادمة للحركة الباعثة ، والمراد بالباعثة القوة النزوعية الشوقية التى تبعث على الحركة مهما حصل فى الخيال صورة شىء مطلوب أو مهروب عنه فتحمل القوة المباشرة للحركة على التحريك ولهذه الباعثة شعبتان شعبة تسمى شهوانية وهى تبعث على تحريك يقرب من الأشياء التى يعتقدها صاحبها ضرورية أو نافعة طلبا للذة والأخرى تسمى غضبية وهى قوة تبعث على تحريك يدفع به الشىء الذى يعتقد فيه أنه ضار أو مفسد طلبا للغلبة (وأما المدركة) فقسمان ظاهرة وباطنة أما الظاهرة فهى الحواس الخمس ولسنا نخوض فى تحقيقها وإن كان القول فى معرفة حقائقها طويلا جداً ولكن غرضنا ذكر الجملة . وأما الباطنة فخمسة . الأولى : الخيالية وهى التى تبقى فيها صور الأشياء المحسوسة بعد غيبتها فإن صورة المرئى يبقى فى الخيال بعد تغميض العين فتلك القوة التى فيها انطبعت صورة المرئى تسمى

خيالا وتسمى حسا مشتركا إذ يبق فيه أثر مدركات الحواس الخمس كلها. الثانية : الحافظة لذلك فإن مايمسك الشخص به صورة الشيء غير مايقبله به والشمع يمسك النقش بيبوسته ويقبله برطوبته والماء يقبله ولا يمسكه وهذه القوى أعنى القابلة لمدركات الحواس الخمس والحافظة لها فى التجويف الأول من مقدم الدماغ فهو مسكنها وبحلول آفة فيه تختل هذه القوة وعرف ذلك بعلم الطب . الثالثة : القوة الوهمية وهى قوة مترتبة فى نهاية التجويف الأوسط من الدماغ يدرك معانى غير محسوسة من المحسوسات الجزئية كالقوة الحاكمة فى الشاة بأن الذئب مهروب عنه وأن الولد معطوف عليه . الرابعة : الحافظة لهذه المعانى التى ليست محسوسة كما كانت الثانية حافظة الصورة فهى حافظة للمعانى وتسمى ذاكرة ومسكنها التجويف المؤخر من الدماغ ولقد بقى الأوسط وهو مسكن القوة المفكرة وهى مرتبة بين خزانة الصور وخزانة المعانى وشأنها أن تركب بعض مافى الخيال مع بعض وتفصل بعضها عن بعض بحسب الاختيار والعادة جارية بذكر هذا فى القوى المدركة والأولى أن يذكر فى جملة القوى المحركة إذ ليس لها إدراك شيء إلا بنوع حركة بتفصيل مركب وتركيب مفصل مما هو حاصل فى الخيال ولا يقدر على وضع شيء مستجد ليس هو موجوداً فى الخيال بحال إلا بمجرد التفصيل والتركيب ، وهذه القوى التى ذكرناها يشارك فيها الحيوانات الإنسان إلا المفكرة فإن فى الحيوانات شيئا يقاربه يسمى المتخيلة ولا تنتهى قوته إلى حدقوة المتفكرة فى الإنسان (وأما النفس الإنسانية) من حيث هى إنسانية فينقسم قواها إلى قوة عالمة وقوة عاملة وقد تسمى

كل واحدة منهما عقلا ولكن على سبيل الاسم المشترك إذ العاملة سميت عقلا لكونها خادمة للعاملة مؤتمرة لها فيما ترسم فأما العاملة فهى قوة ومعنى النفس هو مبدأ حركة بدن الإنسان إلى الأفعال المعينة الجزئية المختصة بالفكر والروية على ما تقتضيه القوة العالمة النظرية التى سنذكرها وينبغى أن يكون سائر قوى البدن مقموعة مغلوبة دون هذه القوة العملية بحيث لا تنفعل هذه القوة عنها وتلك القوى كلها تسكن وتتحرك بحسب تأديب هذه القوة وإشارتها فإن صارت مقهورة حدثت فيها هيئات انقيادية للشهوات تسمى تلك الهيئات أخلاقا رديئة وإن كانت متسلطة حصلت لها هيئة استيلائية تسمى فضيلة وخلقا حسنا ولا يبعد أن يجعل الخلق اسما لما يحصل فى سائر الشهوات والقوى من الانقياد والتأدب أو هذه القوة من الاستيلاء والتأديب وبالجملة لا يبعد أن يكون الخلق واحداً وله نسبتان إذ هيئة الاستيلاء من هذه القوة يلازمها هيئة الانقياد من سائر القوى وهو المراد بالخلق المحمود ، وبالجملة فالنفس أعز من أن يدرك بالحواس الخمس بل تدرك بالعقل أو يستدل عليها بآثارها وأفعالها ولها نسبتان نسبة إلى الجنبة التى تحتها ونسبة إلى الجنبة التى فوقها ولها بحسب كل جنبة قوة بها ينتظم العلاقة بينها وبين تلك الجنبة فهذه القوة العملية هى القوة التى لها بالقياس إلى الجنبة التى دونها وهى البدن وتدبيره وسياسته وأما القوة العالمة النظرية التى سنذكرها فهى لها بالقياس إلى الجنبة التى فوقها لتنفعل وتستفيد منها أعنى بالجنبة الملائكة الموكلة بالنفوس الإنسانية لإفاضة العلوم عليها فإن العلوم إنما تحصل فيها من

الله تعالى بواسطة قال الله تعالى (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا) فكأن للنفس منها وجهين وجه إلى البدن ويجب أن يكون هذا الوجه مستوليا غير قابل البتة ولا منفعل عن عوارض البدن وشهواته ووجه إلى الجنبة الشريفة العالية ويجب أن يكون هذا الوجه دائم القبول عما هنالك مستمدا التأثير فإنها مهبط أسباب سعادته وهذه القوة النظرية العالمة هي التي من شأنها أن تتلق المعاني الكلية المجردة عن العوارض التي تجعلها محسوسة جزئية كما ذكرنا معنى الكلي في كتاب معيار العلم ثم هذه القوة بالنسبة إلى العلوم التي تحصل فيها على ثلاث مراتب .

(أولاها) كنسبة حال الطفل إلى الكتابة فإن الطفل فيه قوة الكتابة ولكن قوة بعيدة من العقل فكذا قوة العلم له .

(المرتبة الثانية) أن يحصل فيها جملة من المعقولات الأولية الضرورية كحال الصبي المميز المراهق للبلوغ ويكون نحو هذه القوة الصبي بالإضافة إلى الكتابة بعد أن عرف الدواة والقلم والحروف المفردة دون المركبة فإنه لم يكن كذلك في المهد إذ ليس فيه على الكتابة إلا قوة مطلقة بعيدة من الفعل .

(المرتبة الثالثة) أن تحصل المعقولات الكسبية كلها بالفعل تكون كالمخزونة عنده فإذا شاء رجع إليها ومهما رجع تمكن منها وحاله في العلوم حال الكاتب الحاذق الصانع الغافل عن الكتابة فإنه مستعد لها بالقوة القريبة استعداداً في غاية الكمال وهذه نهاية الدرجة الإنسانية. لكن في هذه الرتبة درجات لا تحصى تختلف بكثرة المعلومات

وبقلتها وبشرف المعلومات وخستها وبطريق تحصيلها وأنها تحصل بالإلهام الإلهى وبتعلم واكتساب وأنه سريع الحصول أو بطىء الحصول وفى هذا العلم تتباين منازل العلماء والحكماء والأولياء والأنبياء وبحسب التفاوت فيه تتفاوت مناصبهم ودرجات الرقى فيه غــــير محدودة ولا محصورة وأقصى الرتب درجة النبى الذى ينكشف له كل الحقائق أو أكثرها من غير اكتساب وتكلف بل بكشف إلهى فى أسرع وقت وهذه هى السعادة التى تحصل للإنسان فتقربه إلى الله تعالى تقريباً لا بالمكان والمسافة ولكن بالمعنى والحقيقة والأدب يقتضى قبض عنان البيان فى هذا المقام فقد انتهى الأمر بطائفة إلى أن ادعوا اتحاد وراء القرب فقال بعضهم سبحانى ما أعظم شأنى وقال آخر أنا الحق وعبر آخر بالحلول وعبر النصارى باتحاد اللاهوت والناسوت حتى قالوا فى عيسى صلوات الله عليه انه نصف الله * تعالى الله عن قول الظالمين علواً كبيراً وبالجملة فمنازل السائرين إلى الله تعالى لا تنحصر وإنما يعرف كل سالك المنزل الذى قد بلغه فى سلوكه فيعرف ماخلفه من المنازل فأما مابين يديه فلا يحيط بحقيقته إلا بطريق الجملة والإيمان بالغيب فلا يعرف حقيقة النبوة إلا النبى وكما لا يعرف الجنين حال الطفل ولا الطفل حال المميز وما انفتح له من العلوم الضرورية ولا المميز حال العاقل وما اكتسبه من العلوم النظرية فلا يعرف عاقل ما انفتح لأولياء الله وأنبيائه من مزايا لطفه ورحمته و (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها) فهذه الرحمة مبذولة بحكم الجود الإلهى غير

مضنون بها على أحد ولـكن لا بد من الاستعداد للقبول بتزكية النفس وتطهيرها عن الخبث والكدورة وكما أن الصورة المتلونة ليس فيها منع من أن تنطبع فى الحديد الخبيث إلا الحجاب من جهة الحديد فى صدئه وخبثه وافتقاره إلى صيقل يجلوه ويزيل خبثه ويجليه فهكذا ينبغى أن تعتقد أن الحجاب من جانبك لا من جانب الرحمة الإلهية ولذلك قال عليه السلام (إن لربكم فى أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها) ولذلك عبر عن غاية الجود والبذل من ذلك الجانب بأدل العبارات على الشوق والرغبة فقال (ينزل الله كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول : هل من داع فأستجيب له هل من مسترحم فأرحمه) وقال (طال شوق الأبرار إلى لقائي وأنا إلى لقائهم أشد شوقا) وقال (من تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعا ومن أتانى يمشى أتيته هرولة) وعليك أن تستقرىء من القرآن والأخبار مايناظر ذلك (١) فانه خارج عن الحصر والإحصاء .

(بيان ارتباط قوى النفس بعضها ببعض)

اعلم أن هذه القوى متفاوتة الرتب فإن بعضها أريدت لنفسها وبعضها أريدت لغيرها وبعضها خادمة وبعضها مخدومة والرئيس المطلق منها هى التى تراد لنفسها وتراد غيرها لها وليس ذلك إلا الرتبة الأخيرة

---

(١) فمن الأخبار (لا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه الحديث) ومنها لولا أن الشياطين تحوم حول قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السموات والأرض .

وفيها تتفاوت رتب الأولياء والأنبياء فإن الإنسان لم يخلق إلا لما هو من خاصيته وما عدا القوى المخصوصة بالنفس الإنسانية يشاركها فيها الحيوانات فإن الإنسان خلق على رتبة بين البهيمة والملك وفيه جملة من القوى والصفات فهو من حيث يتغذى وينسل فنبات ومن حيث يحس ويتحرك فحيوان ومن حيث صورته وقامته فكالصورة المنقوشة على حائط وإنما خاصته التى لأجلها خُلق قوة العقل ودرك حقائق الأشياء فمن استعمل جميع قواه على وجه التوصل بها إلى العلم والعمل فقد تشبه بالملائكة فحقيق بأن يلحق بهم وجدير بأن يسمى ملكا وربانيا كما قال (إن هذا إلا ملك كريم) ومن صرف همته إلى اتباع اللذات البدنية يأكل كما يأكل الأنعام فقد نزل إلى أفق البهائم فيصير إما غمراً كثور وإما شرها كخنزير وإما ضرعة ككلب وإما حقوداً كجمل أو متكبراً كنمر أو ذا روغان كثعلب أو يجمع ذلك كله كشيطان مريد ، وبالجملة من تصفح القوى التى ذكرناها عرف أن مقتضيات العقل من أرفعها وأعلاها فينظر بعين التعجب كيف يخدم بعضها لبعض خدمة ضرورية عليها فطرت ولا تستطيع مخالفة أمر الله تعالى فيها فإن العقل هو الرئيس المخدوم ويخدمه وزيره وهو أقرب الأشياء إليه وهو العقل العملى لأجل تدبير البدن والبدن آلة النفس ومركبها يقتنص به بواسطة الحواس مبادىء العلوم التى تستنبط منها حقائق الأمور ثم العقل العملى يخدمه الوهم والوهم يخدمه قوتان قوة بعده وقوة قبله ، فالقوة التى بعده هى القوة الحافظة لما أدركه وأداه إليه والقوة التى قبله هى جميع القوى الحيوانية على الترتيب الذى سنذكره ومن جملتها

المتخيلة أعنى المفكرة ، ويخدمها قوتان مختلفتا المأخذ فالقوة الرغبية الشوقية تخدمها بالانبعاث لأن انبعاثها إلى الحركة [١] بالتخيل والفكر والقوة الحافظة للصور التى فى الحس المشترك تخدمها بقبول التركيب والتفصيل فيما فيها من الصور ثم هذان رئيسان لطائفتين ، أما الحافظة للصور فيخدمها المشترك برفع الصور إليها حتى تحفظ . وأما القوة النزوعية فتخدمها الشهوة والغضب ، والشهوة والغضب تخدمهما القوة المحركة للعضل وعندها تنتهى القوى الحيوانية والقوى الحيوانية بالجملة يخدمها النباتية والنباتية ثلاث المولدة والمربية والغاذية ورأسها المولدة وتخدمها المربية والغاذية تخدمها ثم يخدم هذه قوى أربع وهى الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة إذ لابد فى النبات من قوة جاذبة للغذاء إليه ثم ماسكة ثم هاضمة تهضم ما أمسكته الماسكة ثم دافعة تدفع فضله والدافعة هى الخادمة التى لا خادم لها وكأنها كالكناس فى نظام أمر البلد ثم الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة تخدم القوى الهاضمة والجاذبة والماسكة والدافعة وهذه آخر درجات القوى فى الأجسام وقد ضرب للقوى المذكورة مثال يقربها إلى أفهام العوام فقيل القوة المفكرة مسكنها وسط الدماغ بمنزلة الملك يسكن وسط المملكة ، والخيالية مسكنها مقدم الدماغ جارية مجرى صاحب بريده إذ تجتمع الأخبار عنده

---

(١) هكذا بالأصل ولعل الأصح لأن انبعاثها إلى التحريك فإن الشوقية تبعث على التحريك لا أنها تتصف بمباشرة الحركة الجسمانية فتدبر انتهى مصححه

والحافظة التى مسكنها مؤخر الدماغ جارية مجرى خادمه ، والقوة الناطقة جارية مجرى ترجمانه ، والعاملة جارية مجرى كاتبه ، والحواس جارية مجرى الجواسيس وأصحاب الأخبار الصادقة اللهجة فيما يرفعونه من الأخبار فيلتقط كل واحد الخبر من الصقع الذى وكل به إذ البصر موكل بعالم الألوان والسمع بالأصوات وهكذا الجميع ، فيرفعون هذه الأخبار إلى صاحب البريد وصاحب البريد يسقط مايراه حشواً ويرفع الباقى صافياً إلى حضرة الملك فيميزه ويعرف منافعه ومضاره ويسلمه لخادمه إلى وقت الحاجة فحينئذ يتقدم بإخراجه . وكما أن الأعمال التى يتولاها الملك بنفسه أشرف مما يستعمل فيه غيره ـ فكذلك مايتولاه النفس التى هى الملك بالحقيقة بواسطة المفكرة من الروية والاعتبار والقياس والفراسة واستنباط المجهول أشرف مما تستعمل فيه الخدم ، وهذا المثال قريب مما روى أن كعب الأحبار قال دخلت على عائشة فقالت الإنسان عيناه مهاد وأذناه قمع ولسانه ترجمان ويداه جناحان ورجلاه بريدان والقلب ملك فإذا طاب طاب جنوده [1] فقالت : هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فهذه جمل من أحوال النفس تلوناها عليك على سبيل الاقتصار وأنها بعض عجائب النفس ، ولو نظرت فى تشريح الأعضاء وفحصت عن عدد العروق والأعصاب والعضل والعظام والشرايين والأوردة ثم إلى الأعضاء الآلية التى أعدت للنفس ولجذب الطعام ثم لهضمه ثم لدفعه وإلى الآلات التى خلقت للتناسل ، ورأيت العجائب فى خدمة بعضها بعضا بالضرورة ، ثم بعد

(١) هكذا بالأصل ولعل الأصح ثم قالت .

فراغك من تشريح الأجسام نظرت فى تفصيل قوى تلك الأجسام واستقصيته بمعرفة حقائق العلوم الطبيعية لقضيت منها آخر العجب ، فتعساً لمن كفر بالله وغفل عن قوله (وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون) بل فى كل شىء دليل على أنه واحد ، ومن لم يؤمن بالله على الجملة فليس من العقلاء [1] وهو أخس من أن يخاطب بمثل هذه الكلمات ، وإنما كلامنا مع من صدق بالجملة فندعوه إلى البحث عن صنع الله ليزداد بسببه يقينه وإيمانه ويتفاقم به تعظيمه وإجلاله ، فكل ما لا يدرك بالحواس وإنما يدرك بالعقل بواسطة آثاره فسبيل استقصاء معرفته استقصاء النظر فى آثاره بل نضرب مثالا يقرب من فهم الخلق كافة ، فما من فقيه إلا وقد اعتقد فى المذكورين من العلماء مثل أبى حنيفة والشافعى وغيرهما رتبة تتقاضاه التعظيم ـ وهذا يشترك فيه الخلق ولكن ليس من يتصفح تصنيف مصنف فيرى فيه عجائب صنعه وبدائع حذقه يبقى اعتقاده فى التعظيم على ما كان عليه قبل معرفته بل لا يزال يطلع على صفة غريبة له فى كلامه وتصنيفه أو شعره ويزداد نفسه له تعظيما وتوقيراً واعتقاداً ، فمن عرف أن الله صانع العالم كمن عرف أن زيدا متميز عن غيره بكونه ناظم ديوان ومصنف كتاب وأين هذا من اعتقاد من تصفح الشعر فرأى فيه عجائبه وطالع التصنيف وهو من أهل الفضل فرأى فيه غرائبه ، فهذا يعتقد

---

(١) وهذا شبيه بما حكى عن أبى حنيفة وهو قوله لاعذر لأحد فى الجهل بخالقه لما يرى من آثار قدرته .

عظمته ورتبته اعتقادا راسخا عن تحقيق وبصيرة ، والآخر يعتقد اعتقادا مجملا ضعيفا غير مدرك بالبصيرة والتحقيق - وهذا فرق بين رتبة العوام وذوى البصائر فى هذا الأمر الواحد والعالم بما فيه من العجائب تصنيف الله وتأليفه وإبداعه واختراعه والنفس جزء من أجزاء العالم وكل جزء من أجزاء العالم مشحون بالعجائب فلا يزال الباحث عنها مستفيدا زيادة اعتقاد وتأكيد إيمان ولذلك حث الله [1] على التفكر فى الأنفس والآفاق وملكوت السموات والأرض .

(بيان نسبة العمل من العلم وإنتاجه السعادة التى اتفق عليها المحققون من الصوفية بأجمعهم وساعدهم من النظار طوائف سواهم)

إن تأثير العمل لإزالة مالا ينبغى والسعى فى العلم سعى فى تحصيل ماينبغى وإزالة مالا ينبغى شرط لتفريغ المحل لما ينبغى والمشروط هو المقصود وهو أشرف من الشرط ، ومثاله من أراد استيلاد امرأة بها علة تمنع العلوق فعليه وظيفتان (إحداهما) إماطة العلة المفسدة للحمل المانعة من العلوق (والأخرى) إيداع النطفة بعد إزالة العلة

---

(١) ومن ثم لما نزلت : إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب قال عليه السلام ويل لمن لاكها بين لحييه ولم يتفكر فيها .

المانعة ، فالأولى شرط للثانية ، والثانية هى الغاية المطلوبة ، وإذا فرضت داراً بنيت للملك رتبة تلك الدار نزول الملك فيها ، وقد اغتصبها القردة والخنازير، فجمال تلك الدار وكمالها موقوف على أمرين (أحدهما) إزعاج القردة النازلين فيها بغير حق (والآخر) نزول المستحق ، وإذا فرضنا مرآة صدئة قد ستر الخبث صفاها ومنع انطباع صورنا فيها ، فكمال المرآة أن تستعد لقبول الصور فتحكيها كما هى عليها ، وعلى مكملها وظيفتان (إحداهما) الجلاء والصقل وهى إزالة الخبث الذى ينبغى أن لا يكون (والثانية) أن يحاذى بها نحو المطلوب حكاية صورته[1] فكذلك نفس الآدمى مستعدة لأن تصير مرآة يحاذى بها شطر الحق فى كل شىء فتنطبع به كأنها هو من وجه وإن كانت غيره من وجه آخر كما فى الصورة والمرآة وكمالها فى مثل هذه الدرجة وهذه الخاصة هى التى فارقت بها ما تحتها من الحيوانات إذ هذا الاستعداد مسلوب عن الحيوانات كلها سوى الآدمى بالقوة والفعل جميعا كما انسلب عن التراب والخشب الاستعداد لحكاية الصور وأن يكون مرآة لها وهو موجود بالفعل أبدا للملائكة لا يفارقها كما أنه موجود للماء الصافى فإنه يحكى الصورة بطبعه حكاية مخصوصة وهو موجود للآدمى بالقوة لا بالفعل ، فإن جاهد نفسه التحق بأفق الملائكة ، وإن استمر على الأسباب الموجبة لتراكم الخبث على مرآة النفس باتباع الشهوات

---

(١) قوله : حكاية نائب فاعل لاسم المفعول قبله وهو لفظ المطلوب .

اسودّ قلبه وتراكمت ظلمته وبطل بالكلية استعداده والتحق بأفق البهائم وحرم سعادته وكماله حرمانا أبديا لا تدارك له فإذا العمل معناه كسر الشهوات بصرف النفس عن صوبها إلى الجنبة العالية الإلهية ليمحى عن النفس الهيئات الخبيثة والعلائق الردية التى ربطتها بالجنبة السافلة حتى إذا محقت تلك العلائق أو ضعفت حوذى بها نحو النظر فى الحقائق الإلهية ففاضت عليه من جهة الله تعالى تلك الأمور الشريفة كما فاضت على الأولياء والأنبياء والصديقين ـ وذلك صيد ينفق على قدر الرزق وبأحكام الأصل فيه يزيد الاسترزاق كما يعرض من زيادة الاسترزاق بالأسباب فى اقتناص الصيد بل فى اقتناص الربح والتجارة بل فى اقتناص فقه النفس ، فإن القليل بالاجتهاد قد يجاوز حد المجتهدين بمزيد زكاء فطرى فكذا طهارة النفس عن هذه العلائق فى أول الفطرة فى غاية الاختلاف ، ثم الجهد أيضا يختلف وينشأ من ذلك تفاوت لا ينحصر ـ فكذا سعادة الآخرة ، ففيضان هذه الرحمة من الله عز وجل على النفس غاية المطلوب وهو عين السعادة التى للنفس بعد الموت ولكنها مشروطة بإزالة العلائق ومحو الصفات الردية التى تأكدت للنفس باتباع الشهوات ، فإذا العمل يرجع إلى مجاهدة النفس بإزالة مالا ينبغى ، وإذا نسب إلى اتباع الشهوات ظهرت فضيلتها ، وإذا نسب إلى تحصيل ما ينبغى كانت رتبتها منه مرتبة الشرط من المشروط والخادم من المخدوم وما أريد لغيره بالنسبة إلى ما أريد لنفسه وعليه نبه النبي صلى الله عليه وسلم إذ قال (الإيمان بضع وسبعون بابا

أدناها إماطة الأذى من الطريق) والمجاهدة بالعبادات أكثر أغراضها إماطة الأذى عن الطريق ، ولقائل أن يقول المراد بالحديث التقاط الزجاج والعظم والحجارة من الشوارع وإن هذا هو السابق إلى فهم الأكثرين ، ولقائل آخر أن يقول إن الناس يتفاوتون فى فهم معانى الألفاظ على حسب تفاوت رتبهم - ولذلك قال عليه السلام (نضر الله امرأ سمع مقالتى فوعاها ثم أداها كما سمعها فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه) فلولا أن فى ألفاظه مايسبق إلى فهم غير الفقيه خلاف مايسبق إلى فهم الفقيه لما أكد الوصية بذلك ، ثم ليت شعرى إذا عينت الكثرة هل يوجد الحق فى جانب الفقيه أو الأفقه أو فى جانب غيرهم ، ولا شك أن هذا عزيز نادر والغالب خلافه ، فالسابق إلى فهم الجماهير يكاد الحق يجانبه وينحاز إلى مايفهمه الفقيه والأفقه لا سيما فى لفظ لا يصرح بالتخصيص فإن لفظ الأذى عام ولفظ الطريق عام . ولو أريد الخاص لذكر الزجاج أو المدر ونبه به على أمثاله - وذلك الظاهر أيضا مندرج تحت العموم فإنه بذلك العمل أيضا مصلح نفسه ومهذب خلقة ومميط عن النفس رذيلة الغفلة والقساوة وقلة الشفقة على ما سنذكره فى تفصيل سوء الأخلاق وحسنها ، فقد عرفت أن سعادة النفس وكمالها أن تنتقش بحقائق الأمور الإلهية وتتحد بها حتى كأنها هى وإن ذلك لا يكون إلا بتطهير النفس عن هيئات ردية تقتضيها الشهوة والغضب ، وذلك بالمجاهدة والعمل فالعمل للطهارة والطهارة شرط ذلك الكمال ، ولذلك قال عليه السلام : بنى الدين على النظافة .

﴿ بيان مفارقة طريق الصوفية فى جانب العلم طريق غيرهم ﴾

اعلم أن جانب العمل متفق عليه وأنه مقصود لمحو الصفات الردية وتطهير النفس من الأخلاق السيئة ولكن جانب العلم مختلف فيه وتباين فيه طرق الصوفية طرق النظار من أهل العلم فإن الصوفية لم يحرّضوا على تحصيل العلوم ودراستها وتحصيل ماصنفه المصنفون فى البحث عن حقائق الأمور بل قالوا الطريق تقديم المجاهدة بمحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها والإقبال بكل الهمة على الله تعالى، ومهما حصل ذلك فاضت عليه الرحمة وانكشف له سر الملكوت وظهرت له الحقائق وليس عليه إلا الاستعداد بالتصفية المجردة وإحضار النية مع الإرادة الصادقة والتعطش التام والترصد بالانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرحمة إذ الأولياء والأنبياء انكشف لهم الأمور وسعدت نفوسهم بنيل كمالها الممكن لها لا بالتعلم بل بالزهد فى الدنيا والإعراض والتبرى عن علائقها والإقبال بكل الهمة على الله تعالى ، فمن كان لله كان الله له حتى إن فى الوقت الذى صدقت فيه رغبتى لسلوك هذا الطريق شاورت متبوعا مقدما من الصوفية فى المواظبة على تلاوة القرآن فمنعنى وقال السبيل أن تقطع علائقك من الدنيا بالكلية بحيث لا يلتفت قلبك إلى أهل وولد ومال ووطن وعلم وولاية بل تصير إلى حالة يستوى عندك وجودها وعدمها ، ثم تخلو بنفسك فى زاوية تقتصر من العبادة على الفرائض والرواتب وتجلس فارغ القلب مجموع الهم مقبلا بذكرك على الله تعالى ، وذلك فى أول

الأمر بأن تواظب باللسان على ذكر الله تعالى فلا تزال تقول (الله الله) مع حضور القلب وإدراكه إلى أن تنتهى إلى حالة لو تركت تحريك اللسان لرأيت كأن الكلمة جارية على لسانك لكثرة اعتياده ، ثم تصير مواظبا عليه إلى أن يمحى أثر اللسان فتصادف نفسك وقلبك مواظبين على هذا الذكر من غير حركة اللسان ، ثم تواظب إلى أن لا يبقى فى قلبك إلا معنى اللفظ ، ولا يخطر ببالك حروف اللفظ وهيئات الكلمة بل يبقى المعنى المجرد حاضراً فى قلبك على اللزوم والدوام ، ولك اختيار إلى هذا الحد فقط ، ولا اختيار بعده لك إلا فى الاستدامة لدفع الوساوس الصارفة ، ثم ينقطع اختيارك فلا يبقى لك إلا الانتظار لما يظهر من فتوح ظهر مثله للأولياء وهو بعض مايظهر للأنبياء قد يكون أمراً كالبرق الخاطف لا يثبت ثم يعود وقد يتأخر فإن عاد فقد يثبت وقد يكون مختطفا وإن يثبت امتد ثباته وقد لا يطول وقد يتظاهر أمثاله على التلاحق وقد لا يقتصر على فن واحد ومنازل أولياء الله فيه لا تحصى لتفاوت خلقهم وأخلاقهم ، فهذا منهج الصوفية ، وقد ردوا الأمر إلى تطهير محض من جانبك وتصفية وجلاء ثم استعداد وانتظار فقط ، وأما النظار فلم ينكروا وجود هذا الطريق وإفضاءه إلى المقصد وهو أكبر أحوال الأولياء والأنبياء ، ولكن استوعروا هذا الطريق واستبعدوا إفضاءه إلى المقصود ، وزعموا أن محو العلائق إلى ذلك الحد بالاجتهاد كالممتنع وإن حصل فى حالة فثباته أبعد منه وأدنى وسواس وخاطر يشوش ، وفى أثناء هذه المجاهدة قد

يفسد المزاج ويختلط العقل ويمرض البدن ويفضى إلى الماليخوليا ، فإذا لم تكن النفس قد ارتاضت بالعلوم الحقيقية البرهانية اكتسبت بالخاطر خيالات تظنها حقائق تنزل عليها ، فكم من صوفى بقى فى خيال واحد عشر سنين إلى أن تخلص عنه ولوكان قد أتقن العلوم أولا لتخلص منه على البديهة ، فالاشتغال بتحصيل العلوم بمعرفة معيار العلم وتحصيل براهين العلوم المفصلة أولى فإنه يسوق إلى المقصود سياقة موثوقا بها كما يوثق بالاجتهاد فى أن يحصل فقه النفس ، وقد كان عليه السلام فقيه النفس من غير اجتهاد لكن لو أراد مريد أن ينال رتبته بمجرد الرياضة فقد توقع توقعا بعيدا فيجب تحصيل نفس العلوم الحقيقية فى النفس بطريق البحث والنظر على غاية الإمكان ، وذلك بتحصيل ما حصله الأولون أولا ، ثم لا بأس بعد ذلك بالانتظار لما لم ينكشف للعلماء الباحثين عن الأمور الإلهية فما لم ينكشف للخلق أكثر مما انكشف ، وهذا تباين الفريقين ، وقد خطر لى مثال لا يبعد أن يكون منبها للأفهام الضعيفة المفتقرة إلى الأمثلة المحسوسة فى درك الحقائق العقلية ومعرفا لوجه الفرق بين الفريقين ، فقد حكى أن أهل الصين والروم تباهوا بحسن صناعة النقش والتصوير بين يدى بعض الملوك ، فاستقر رأى الملك على أن يسلم إليهم صفة ينقش أهل الصين منها جانباً وأهل الروم جانبا ويُرخى بينهم حجاب بحيث لا يطلع كل فريق على صاحبه ، فإذا فرغوا رفع الحجاب ونظر إلى الجانبين وعرف رجحان من رجح من الفريقين ففعل ذلك فجمع أهل الروم من الأصباغ الغريبة مالا ينحصر ،

ودخل أهل الصين وراء الحجاب من غير صبغ وهم يجلون جانبهم ويصقلونه والناس يتعجبون من توانيهم فى طلب الصبغ ، فلما فرغ أهل الروم ادعى أهل الصين إنا أيضا قد فرغنا ، فقيل لهم كيف فرغتم ولم يكن معكم صبغ ولا اشتغلتم بنقش ، فقالوا ما عليكم ارفعوا الحجاب وعلينا تصحيح دعوانا فرفعوا الحجاب وإذا بجانبهم وقد تلألأ فيه جميع الأصباغ الرومية الغريبة إذ كان قد صار كالمرآة لكثرة التصفية والجلاء فازداد حسن جانبهم بمزيد الصفاء وظهر فيه ماسعى فى تحصيله غيرهم فقدر كأن النفس محل نقش العلوم الإلهية ، ولك فى تحصيله طريقان (أحدهما) تحصيل عين النقش كطريق أهل الروم (والثانى) الاستعداد لقبول النقش من خارج والخارج ههنا اللوح المحفوظ ونفوس الملائكة فإنها منقوشة بالعلوم الحقيقية نقشا بالفعل على الدوام كما أن دماغك منقوش بالقرآن كله إن كنت حافظا له — وكذلك جملة علومك لا نقشا يحس ويبصر ولكن نوعا من الانتقاش عقليا ينكره من اقتصرت به خساسة نفسه على المحسوسات ولم يترق عنها .

﴿ بيان الأولى من الطريقين ﴾

فإن قلت فقد مهدت للسعادة طريقين متباينين فأيهما أولى عندك (فاعلم) أن الحكم فى مثل هذه الأمور بحسب الاجتهاد الذى يقتضيه حال المجتهد ومقامه الذى هو فيه ، والحق الذى يلوح لى والعلم عندالله فيه أن الحكم بالنفى أو الإثبات فى هذا على الإطلاق خطأ بل يختلف

بالإضافة إلى الأشخاص والأحوال ، فكل من رغب فى السلوك فقد كبر شأنه ، فالأولى به أن يقتنع بطريق الصوفية وهو المواظبة على العبادة وقطع العلائق فإن البحث عن العلوم الكسبية لتحصل ملكة ثابتة فى النفس شديد ولا يتيسر إلا فى عنفوان العمر ، والتعلم فى الصغر كالنقش فى الحجر ، ومن العناء رياضة الهرم ، وقيل لأحد الأكابر من أراد أن يتعلم شيخا مايفعل ، فقال اغسل مسحا فعساه يبيض ، وقد خرج من هذا أن الأولى بأكثر الخلق الاشتغال بالعمل والاقتصار من العلم على القدر الذى يعرف به العمل فإن الأكثر لاينتبهون لهذا الأمر فى عنفوان الشباب وإن تنبه فى عنفوان شبابه نظر إلى طبعه وزكائه ، فإن علم أنه لا يستعد لفهم الحقائق العقلية الدقيقة وجب عليه أن يشتغل بالعمل أيضا فلا فائدة فى اشتغاله بالعلوم النظرية وهم الأكثرون من الأقل الذى تتبعناه فإن كان زكيا قابلا للعلوم فإن لم يكن فى بلده أو فى العصر مستقل بالعلوم النظرية مترق عن رتبة تقليد من سبقه فالأولى به العمل فإن هذه لا يمكن تحصيلها إلا بمعلم فليس فى القوة البشرية فى شخص واحد الوصول إليها إلا قليل بطول الزمن . ولذلك لو لم يكن علم الطب مثلا صار مقننا مرتبا متقنا بالخواطر المتعاونة فى الأزمنة المتطاولة لا فتقر أزكى الناس إلى عمر طويل فى معرفة علاج علة واحدة فضلا عن الجميع ، والغالب فى البلاد الخلو عن مثل هذا العالم المستقل ، فإذاً لم يبق إلا قليل من قليل وهو زكى تنبه فى

عنفوان عمره لهذا الأمر وهو مستعد لفهم العلوم وصادف عالما مستقلا بالعلوم تحقيقا لا اسما وحسبة لا رسما كما ترى من أكثر العلماء ، فهم إما مقلدون فى أعيان المذاهب أو فى أعيان المذاهب وأدلة تلك المذاهب جميعا على الوجه الذى تلقوه من أرباب المذاهب ، ومن قلد أعمى فلا خير فى متابعة العميان واتباعهم ، أو شاب نشأ فى طلب العلم وهو زكى فى نفسه وتنبه له بعد الارتياض بأنواع العلوم ولكن بهذا النوع من العلم الذى تنبه له ، فمثل هذا الشخص مستعد للطريقين جميعا ، فالأولى به أن يقدم طريق التعلم فيحصل من العلوم البرهانية ما للقوة البشرية إدراكه بالجهد والتعلم فقد كفى المؤنة فيه تعب من قبله ، فإذا حصل ذلك على قدر إمكانه حتى لم يبق علم من جنس هذه العلوم إلا وقد حصله فلا بأس بعده أن يؤثر الاعتزال عن هذا الخلق والاعراض عن الدنيا والتجرد لله وأن ينتظر فعساه ينفتح له بذلك الطريق ما التبس على سالكى هذا الطريق - هذا ما أراه والعلم عند الله ، وقد يخرج منه أن الصواب لأكثر الخلق الاشتغال بالعمل ، ومن العمل العلم العملى أعنى ما يعرف به كيفيته ، فإن العلم العملى ليس بأشرف من العمل بل هو دونه فإنه مراد له دون العلم الذى يراد منه المعلوم كالعلم بالله وصفاته وملائكته وكتبه ورسله والعلم بالنفس وصفاتها ، والعلم بملكوت السموات والأرض وغيره ، فهذه العلوم نظرية وليست بعملية وإن كان قد ينتفع بها فى العمل على سبيل العرض لا على سبيل

القصد ولكون الصواب في العمل لأكثر الخلق استقصاه النبي ﷺ تفصيلا وتأصيلا حتى علّم الخلق الاستنجاء وكيفيته ولما آل الأمر إلى العلوم النظرية أجمل ولم يفصل ولم يذكر من صفات الله إلا أنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، نعم بعد إجمال العلم ذكر من تعظيمه وتشريفه وتقديمه على العمل مالا يكاد يحصى كقوله (تفكر ساعة خير من عبادة سنة) وكقوله (فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر) إلى غير ذلك مما ورد فيه ، ثم ذلك العلم المقدم على العمل لا يخلو إما أن يكون هو العلم بكيفية العمل وهو الفقه وعلم العبادات ، وإما أن يكون علما سواه . وباطل أن يكون الأول هو المراد لوجهين (أحدهما) أنه فضل العالم على العابد ، والعابد هو الذى له العلم بالعبادة وإلا فهو عابث فاسق (والثاني) أن العلم بالعمل لا يكون أشرف من العمل لأن العلم العملي لا يراد لنفسه وإنما يراد للعمل وما يراد لغيره يستحيل أن يكون أشرف منه .

(بيان جنس العلم والعمل الموصلين إلى جنة المأوى)

فإن قلت العلوم أصنافها كثيرة والأعمال وأنواعها مختلفة وليس الكل مطلوبا فما الصنف النافع حتى أشتغل به (فأقول) أما العلم فمنقسم إلى العملي والنظري ، أما النظري فكثير ولكن كل علم يتصور أن يختلف بالأعصار والبلدان والأمم فلا يورث كمالا يبقى فى النفس أبد الدهر ونحن نبتغي من العلم تبليغ النفس كمالها لتسعد بكمالها مبتهجة

بمالها من البهاء والجمال أبد الدهر ، فخرج عن هذا البيان العلم باللغات وموجبات الألفاظ كالعلم باللغة والإعراب والنحو والشعر والترسل وشرح الألفاظ وتفصيلها ، فإن افتقر إلى شيء منها فيطلب لا لنفسه بل ليكون ذريعة للعلم المقصود لكنا الآن فى بيان العلم المقصود فإنا ان نعرّف ذات الحج لم يلزمنا ذكر الخف والمطهرة وإن كان يحتاج إليهما فى التوصل إليه ، وإنما نميز العلوم التى تبقى معلوماتها أبدالآبدين لاتزول ولاتحول ، ومثل ذلك لايختلف باختلاف الأعصار والأمم . وذلك يرجع إلى العلم بالله وصفاته وملائكته وكتبه ورسله وملكوت السموات والأرض وعجائب النفوس الإنسانية والحيوانية من حيث إنها مرتبطة بقدرة الله عز وجل لا من حيث ذواتها ، فالمقصود الأقصى العلم بالله ، وملائكة الله لابد من معرفتهم لأنهم واسطة بين الله وبين النبي ـ وكذا معرفة النبوة والنبي لأن النبي واسطة بين الخلق والملائكة كما أن الملك واسطة بين الله والنبي ـ وهكذا يتسلسل إلى آخر العلوم النظرية ، وغايتها وأقصاها العلم بالله عز وجل ولكن يتشعب القول فيه اشتعابا كثيراً إذ يدل بعضها على بعض ـ ولذلك يكثر التفصيل فيه

﴿ القسم الثانى ﴾ العلم العملى وهو ثلاثة علوم علم النفس بصفاتها وأخلاقها وهو الرياضة ومجاهدة الهوى وهو أكبر مقصود هذا الكتاب وعلمها بكيفية المعيشة مع الأهل والولد والخدم والعبيد فإنهم خدمك أيضاً كأطرافك وأبعاضك وقواك ، وكما لابد من سياسة قوى بدنك من الشهوة والغضب وغيرهما فلابد من سياسة هؤلاء ، وعلم سياسة

أهل البلد والناحية وضبطهم ولأجله يراد علم الفقه فى الأكثر
إلا مايتعلق بربع العبادات من جملة العبادات الخاصة بالنفس ، ومنه آداب
القضاء ولا يتم إلا بمعرفة ربع النكاح والبيع والخراج ، وأهم هذه
الثلاثة تهذيب النفس وسياسة البدن ورعاية العدل من هذه الصفات حتى
إذا اعتدلت تعدت عدالتها إلى الرعية البعيدة من الأهل والولد ، ثم إلى
أهل البلد فكلكم راع وكلكم مسؤل عن رعيته ، وما سواه يجرى منه
مجرى الزكاة من النصاب والضوء من الشمس والظل من الشجر وكيف
يتوقع استقامة الظل مع اعوجاج ذى الظل ، فإذا لم يقدر الإنسان على
سياسة نفسه وضبطها فكيف يقدر على سياسة غيره ، فهذه مجامع العلوم
العملية ، ولنذكر جمل العلم الأخص من هذه العلوم السياسية فإنه
المقصود بالبيان ، ومجامع القوى التى لا بد من تهذيبها ثلاث ، قوة التفكر
وقوة الشهوة وقوة الغضب ، ومهما هذبت قوة الفكر وأصلحت كما
ينبغى حصلت بها الحكمة التى أخبر الله عنها حيث قال (ومن يؤت
الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً) وثمرتها أن يتيسر له الفرق بين الحق
والباطل فى الاعتقادات وبين الصدق والكذب فى المقال وبين الجميل
والقبيح فى الأفعال ، ولا يلتبس عليه شىء من ذلك مع أنه الأمر الملتبس
على أكثر الخلق ، ويعين على إصلاح هذه القوة وتهذيبها ماأودعناه
معيار العلم (والقوة الثانية) هى الشهوة وبإصلاحها تحصل العفة حتى
تنزجر النفس عن الفواحش وتنقاد للمواساة والإيثار المحمود بقدر
الطاقة (والثالثة الحمية الغضبية) وبقهرها وإصلاحها يحصل الحلم وهو

كظم الغيظ وكف النفس عن التشفى وتحصل الشجاعة وهى كف النفس عن الخوف والحرص المذمومين فى كتاب الله تعالى ، ومهما أصلحت القوى الثلاث وضبطت على الوجه الذى ينبغى وإلى الحد الذى ينبغى وجعلت القوتان منقادتين للثالثة التى هى الفكرية العقلية فقد حصلت العدالة ، وبمثل هذا العدل قامت السموات والأرض وهى جماع مكارم الشريعة وطهارة النفس وحسن الخلق المحمود بقوله عليه السلام (أكمل المؤمنين إيمانا حسنهم أخلاقا وألطفهم بأهله) وقوله عليه السلام (أحبكم إلى أحاسنكم أخلاقا الموطؤن أكنافا الذين يألفون ويؤلفون) وثناء الشرع على الخلق الحسن خارج عن الحصر ومعناه إصلاح هذه القوى الثلاث ، وقد جمعه الله سبحانه فى قوله (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون) فدل بالإيمان بالله ورسوله مع نفى الارتياب على العلم اليقينى والحكمة الحقيقية التى لا يتصور حصولها إلا بإصلاح قوة الفكر ، ودل بالمجاهدة بالأموال على العفة والجود اللذين هما تابعان بالضرورة لإصلاح الشهوة ، ودل بالمجاهدة على الشجاعة والحلم اللذين هما تابعان لإصلاح الحمية واسلاسها للدين والعقل حتى تنبعث مهما انبعث وتسكن مهما سكن ، وعليه دل قوله تعالى (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) وقال عليه السلام فى تفسيره (هو أن تعفو عمن ظلمك وتعطى من حرمك وتصل من قطعك وتحسن لمن أساء إليك) فالعفو عمن ظلمك هو نهاية الحلم والشجاعة، وإعطاء من حرمك هو نهاية الجود . ووصل من قطعك هو نهاية الإحسان .

(بيان مثال النفس مع هذه القوى المتنازعة)

مثل نفس الإنسان فى بدنه كمثل وال فى مدينته ومملكته ، وقواه وجوارحه الخادمة للبدن بمنزلة الصناع والعملة والقوة العقلية المفكرة له كالمشير الناصح والوزير العاقل ، والشهوة له كعبد سوء يجلب الميرة والطعام ، والحمية كصاحب شرطته والعبد الجالب للميرة مكار خداع خبيث ملبس يتمثل بصورة الناصح ، وتحت نصحه الداء العضال والشر الشمر [1] وديدنه منازعة الوزير فى التدبير حتى لا يغفل عن منازعته ومعارضته فى آرائه ساعة ، فكما أن الوالى فى مملكته متى استشار فى تدبيراته لوزيره معرضاً عن إشارة هذا العبد الخبيث بل مستدلا بإشارته على أن الصواب فى نقيض رأيه وأدب صاحب شرطته وأسلسه لوزيره وجعله مؤتمراً له مسلطا من جهته على هذا العبد الخبيث واتباعه وأنصاره حتى يكون العبد مسوسا لا سايسا ومأمورا مدبرا لا آمرا مدبرا استقام أمر بلده وانتظم لقيام العدل بسببه كذلك النفس متى استعانت بالعقل وأدبت الحمية الغضبية وسلطتها على الشهوة واستعانت بالعقل على الأخرى تارة بأن تقلل من تيه الغضب وغلوائه بخلابة الشهوة واستدراجها وتارة تقمع الشهوة وتقهرها بتسليط الغضب والحمية عليها وتقبيح مقتضياتها استشاطة عليها اعتدلت قواه وحسنت أخلاقه ،

---

(١) الشمر بوزن الفلز الشديد قال فى القاموس شر شمر بوزن فلز أى شديد انتهى مصححه .

ومن عدل عن هذه الطريقة فهو كما قال الله تعالى (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم) وقال واتبع هواه فمثله كمثل الكلب وقال عليه السلام (أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك) وقال تعالى لمن قهر هواه (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى) وليس الأمر كما ظنه فريق من لزوم قمع الغضب وإماطته بالكلية وقلع الشهوة وإماطتها بالكلية بل الواجب ضبطها وتأديبها فإن العقل لا يقدر على التأديب دون الحمية الغضبية إذ ليس له إلا الإشارة بالصواب وهو أشرف القوى ، وبه صار الإنسان خليفة الله فى أرضه ولكنه كطبيب مشير إلى مافيه البر فإن لم يستعن بالغضب والحمية التى ترهق الشهوة إلى الطاعة وتنتهض خادمة للعقل فى الزجر والكسر لم تفد إشارته ـ ولذلك لا يتبين فضيلة العقل لمن لا حمية له ولكن ينبغى أن يتأدب بحيث لا ينبعث إلا بإشارة العقل ، وكذلك الشهوة فإن إماتتها عن الجماع عسرة وقاطعة للتناسل الذى به بقاء النوع وعن الطعام صعب وينقطع به بقاء الشخص ولكن يكسر الشره فى الطعام حتى لا يكون المقصود من الطعام التلذذ بالتناول بل استيفاء القوة للتوصل به إلى العلم والعمل فيكون هو فى أكله كهو فى اعلافه دابته إذا انتهض للجهاد فمقصوده التوصل فقط ويود لو استغنى عن الطعام وبقيت قوته على العلم والعمل (مثال آخر) الإنسان حيث خلق بنفسه عالماً كبيراً فى المعنى صغيراً فى الحجم ، فبدنه كمدينة وعقله كملك مدبر لها ، وقواه المدركة من الحواس الظاهرة والباطنة كجنوده ، وأعوانه

وأعضاؤه كرعيته، والنفس الأمارة بالسوء التي هي الشهوة والغضب كعدو ينازعه في مملكته ويسعى في إهلاك رعيته، فصار بدنه كرباط وثغر، ونفسه كمقيم فيه مرابط فإن جاهد عدوه وأسره وقهره على مايجب حمد أثره إذا عاد إلى حضرته تعالى كما قال (فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى) وإن ضيع ثغره وأهل رعيته ذم أثره وانتقم منه عند لقاء الله تعالى، وقال الله يوم القيامة كما وردَ في الخبر (يا راعي السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ولم ترد الضالة ولم تجبر الكسير اليوم أنتقم منك) وهذا الجهاد ذكره باللسان مفرح وغذاء للروح، وتحقيقه بالعمل بالحقيقة هو نزوع الروح، ولن يعرف ذلك إلا من طالب نفسه بترك شهواته، ولذلك قالت الصحابة رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر فسموا مجاهدة الكفار بالسيف الجهاد الأصغر، وكذلك سئل رسول الله ﷺ أي الجهاد أفضل يا رسول الله فقال عليه السلام (جهادك هواك) ولذلك قال (ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد من ملك نفسه عند الغضب) (مثال آخر) مثل العقل مثل فارس متصيد وشهوته كفرسه وغضبه ككلبه فمتى كان الفارس حاذقاً وفرسه مروضا وكلبه مؤدباً معلما منقاداً صار حريا بالنجح، ومتى كان هو في نفسه أحمق وكان الفرس جموحاً والكلب عقوراً فلا فرسه ينبعث تحته منقاداً ولا كلبه يسترسل بإشارته مطيعاً فهو خليق بأن يعطب فضلا عن أن ينال ماطلب .

(بيان مراتب النفس فى مجاهدة الهوى والفرق بين إشارة الهوى والعقل)

اعلم أن للإنسان فى مجاهدة الهوى ثلاثة أحوال (الأولى) أنه يغلبه الهوى فيملكه ولا يستطيع له خلافاً وهو حال أكثر الخلق وهو الذى قال الله تعالى (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه) إذ لا معنى للاله إلا المعبود ، والمعبود هو المتبوع إشارته ، فمن كان تردده فى جميع أطواره خلف أغراضه البدنية وأوطاره فقد اتخذ إلهه هواه (الثانية) أن يكون الحرب بينهم سجالا تارة لها اليد وتارة عليها اليد ـ فهذا الرجل من المجاهدة ، فإن اخترمته المنية فى هذه الحالة فهو من الشهداء لأنه مشغول بامتثال قوله ﷺ (جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم) وهذه الرتبة العليا للخلق سوى الأنبياء والأولياء (الثالثة) أن يغلب هواه فيصير مستولياً عليه لا يقهره بحال من الأحوال وهذا هو الملك الكبير والنعيم الحاضر والحرية التامة والخلاص عن الرق ولذلك قال عليه السلام (ما من أحد إلا وله شيطان ولى شيطان وأن الله قد أعانني على شيطانى حتى ملكته) وقال فى حق عمر ماسلك عمر فجا إلا وسلك الشيطان فجا غيره ، وهذا الآن مزلة قدم ، فكم من إنسان يظن أنه نال هذه الرتبة وهو فى الحقيقة شيطان مريد فإنه يتبع أغراضه ولكن يتعال لأغراضه إنها من الدين وأن طلبه لها لأجل الدين حتى رأيت جماعة اشتغلوا بالوعظ والتدريس والقضاء والخطابة وأنواع الرياسة

وهم فيه متبعون للهوى ، ويزعمون أن باعثهم الدين ومحركهم طلب الثواب ومنافستهم عليها من جهة الشرع وهى نهاية الحمق والغرور ، وإنما يعرف حقيقة ذلك بأمروهو أن الواعظ المقبول إن كان يعظ لله لا لطلب القبول وقصده دعوة الخلق إلى الله ، فعلامته أنه لو جلس على مكانه واعظ أحسن منه سيرة وأغزر منه علما وأطيب منه لهجة وتضاعف قبول الناس له بالنسبة إلى قبوله فرح به وشكر الله على إسقاط هذا الفرض عنه بغيره وبمن هو أقوم به منه كمن تعين عليه جهاد كافر وقتله لارتداده ، فنزلت بالكافر صاعقة أحرقته وكفى مؤنته والجهاد معه فرح به وشكر الله تعالى ، وهذه الحالة لا يصادفها من نفسه إلا الأولياء وتكون إحدى آثارها الاحتراز بأقصى الإمكان كل ساعة وتصريحه بقوله : اقتلونى فلست بخيركم كما نقل عن الصديق رضى الله عنه ، فإن قلت فإذا كنا لا نأمن مثل هذا التلبيس والخداع بتزوير الشيطان والتدلى بحبل الغرور كما حكى عن هؤلاء فبم نميز بين إشارة العقل وإشارة الهوى (فاعلم) أن هذا مطلب عويص ولا خلاص عنه إلا بالعلوم الحقيقية ولا مغنى فيه مثل ما أودعناه معيار العلم إذ به ينكشف التلبيس عن الحق ولكن القدر الذى ينبغى أن يفزع إليه عند التحير أن يعلم أن العقل فى أكثر الأمر يشير بالأصلح للعواقب وإن كان فيه كلفة ومشقة فى الحال ، والهوى يشير بالاستراحة وترك التكلف ، فمهما عرض لك أمر ولم تدر أيهما أصوب فعليك بما تكرهه لا بما تهواه ، فأكثر الخلق فى الكراهة قال عليه السلام (حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات) وقال تعالى (وعسى أن تكرهوا

شيئا ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) وقال تعالى (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم) فكلما يشير عليك بالدعة والرفاهية وحظر الكلف وإيثار الراحة فى الحال فاتهم فيه نفسك فإن حبك الشىء يعمى ويصم ، وبالجملة فما يشير إليه العقل بقوته إفزع إلى العبادة والاستخارة فيه حتى ينشرح الصدر ويعضده الاستشارة إذا استشير فيه أهله ، وأكثر ما يلبس به الهوى معاذير مزخرفة ، والعقل يرشد بحجج حقيقية والعاشق لشخص قبيح أو المتناول لطعام بشع شغف به لعادته لو روجع لزخرف فيه معاذير مموهة يشهد عليه العقل بأنه متصنع متكلف ، وبالجملة إدراك هذه الحقيقة لا يكون إلا بنور إلهى وتأييد سماوى فليكن الفزع إلى الله فى مظان الحيرة ، فقد قال بعض العلماء إذا مال العقل إلى مؤلم فى الحال نافع فى العاقبة ومال الهوى نحو نقيضه الملذ فى الحال الوخيم فى العقبى وتنازعا وتحاكما إلى القوة المدبرة المفكرة سارع نور الله تعالى إلى نصرة العقل وبادر وسواس الشيطان وأولياؤه إلى نصرة الهوى وقام صف القتال بينهما ، فإن كانت القوة المدبرة من حزب الشيطان وأوليائه ذهلت عن نور الحق وعميت عن نفع الآجل واغترت بلذة العاجل وجنحت إليه وقهر أولياء الله وإن كانت من حزب الله وأوليائه اهتدت بنوره واستهانت بالعاجلة وطلبت الآجلة قال الله تعالى (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات) وشبه الله العقل بشجرة طيبة والهوى بشجرة خبيثة فقال (ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة) الآية فعند قيام الصف والتحام القتال بين هذين

الجندين اللذين أحدهما من أعداء الله والآخر من أوليائه لا سبيل إلا إلى الفزع إلى الله تعالى والاستعاذة من الشيطان الرجيم كما قال تعالى (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم) (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) فإن قلت فهل من فرق بين الهوى والشهوة ، قلنا لا حجر فى العبارات ولكن نعنى بالهوى المذموم من جملة الشهوات دون المحمود ، والمحمود من فعل الله تعالى وهى قوة جعلت فى الإنسان لتنبعث بها النفس لنيل مافيه صلاح بدنه إما بإبقاء بدنه أو بإبقاء نوعه وإصلاحهما جميعاً ؛ والمذموم من فعل النفس الأمارة بالسوء وهو استحبابها لما فيه لذتها البدنية — وهذه الشهوة إذا غلبت سميت هوى فإنها تستتبع الفكرة وتستخدمها لتستغرق وقتها فى الامتثال لأمرها ، والفكرة مترددة بين الشهوة والعقل ، يخدمها العقل فوقها والشهوة تحتها ، فمتى مالت الفكرة نحو العقل ارتفعت وشرفت وولدت المحاسن وإذا مالت إلى الشهوة تسفلت إلى أسفل السافلين وولدت القبائح .

(بيان إمكان تغيير الخلق)

لقد ظن بعض المائلين إلى البطالة أن الخُلُق كالخَلْق فلا يقبل التغيير والتفت إلى قوله عليه السلام فرغ الله من الخَلْق وظن أن المطمع فى تغيير الخلق طمع فى تغيير خلق الله عز وجل وذهل عن قوله عليه السلام (حسنوا أخلاقكم) وإن ذلك لو لم يكن ممكنا لما أمر به ولو امتنع ذلك لبطلت الوصايا والمواعظ والترغيب والترهيب فإن الأفعال

نتائج الأخلاق كما أن الهوىّ إلى أسفل نتيجة الثقل الطبيعى فلم يتوجه الملام إلى أحدهما دون الآخر بل كيف ينكر تهذيب الإنسان مع استيلاء عقله وتغيير خلق البهائم ممكن إذ ينتقل الصيد من التوحش إلى التأنس والكلب من الأكل إلى التأدب والفرس من الجماح إلى السلاسة وكل ذلك تغيير خلق ، والقول الشافى فيه أن ماخلق الله سبحانه قسمان قسم لا فعل لنا فيه كالسماء والكواكب بل أعضاء أبداننا وأجزائها وماهو حاصل بالفعل ، والقسم الثانى ماخلق وجعلت فيه قوة لقبول كمال بعده إذا وجد شرط التربية ، وتربيته قد تتعلق بالاختيار فإن النواة ليست بتفاح ولا نخل ولكنها قابلة بالقوة لأن تصير نخلا بالتربية وغير قابلة لأن تصير تفاحا ، وإنما تصير نخلا إذا تعلق بها اختيار الآدمى فى تربيتها — فلذلك لو أردنا أن نقلع بالكلية الغضب والشهوة من أنفسنا ونحن فى هذا العالم عجزنا عنه ولكن لو أردنا قهرهما واسلاسهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه ، وقد أمرنا بهذا وصار ذلك شرط سعادتنا ونجاتنا ، نعم الجبلات مختلفة فبعضها سريعة القبول وبعضها بطيئة القبول ولاختلافهما سببان (أحدهما) باعتبار التقدم فى الوجود فان قوة الشهوة وقوة الغضب وقوة التفكر موجودة فى الإنسان ، وأصعبها تغييراً وأعصاها على الإنسان قوة الشهوة فإنها أقدم القوى وجوداً وأشدها تشبثاً والتصاقا فإنها توجد معه فى أول الأمر حتى توجد فى الحيوان الذى هو جنسه ، ثم توجد قوة الحمية والغضب بعده ، وأما قوة الفكر فانها توجد آخراً والسبب أنه يتأكد الخلق بكثرة العمل

بموجبه والطاعة له وباعتقاد كونه حسناً مرضياً ، والناس فيه أربع مراتب (الأولى) هو الإنسان الغفل الذى لايعرف الحق من الباطل والجميل من القبيح فيبقى خاليا عن الاعتقاد وخاليا أيضا عن تشمير شهواته[1] باتباع اللذات فهذا أقبل الأقسام للعلاج فلا يحتاج إلا إلى تعليم مرشد وإلى باعث فى نفسه يحمله على الاتباع فيحسن خلقه فى أقرب وقت (والثانية) أن يكون قد عرف قبح القبيح ولكنه لم يتعود العمل الصالح بل زين له شر عمله يتعاطاه انقياداً لشهواته وإعراضا عن صواب رأيه فأمره أصعب من الأول إذ تضاعفت علته فعليه وظيفتان (إحداهما) قلع مارسخ فيه من كثرة التعود للفساد (والآخر) صرف النفس إلى ضده وعلى الجملة هو فى محل قبول الرياضة إن انتهض لها عن جد كامل (والثالثة) أن يعتقد الأخلاق القبيحة إنها الواجبة المستحسنة وإنها حق وجميل ثم تربى عليها — فهذا يكاد تمتنع معالجته ولن يرجى صلاحه إلا على الندور إذ تضاعفت عليه أسباب الضلال (الرابعة) أن يكون مع وقوع نشوئه على الاعتقاد الفاسد وتربيته على العمل به يرى فضله فى كثرة الشر واستهلاك النفوس ويتباهى به ويظن أن ذلك يرفع من قدره — وهذا أصعب المراتب وفى مثله قيل (من التعذيب تهذيب الذئب ليتأدب وغسل المسح ليبيض) (فالأول) من هؤلاء يقال له جاهل (والثانى) جاهل وضال (والثالث) جاهل وضال وفاسق (والرابع) جاهل وضال وفاسق وشرير .

---

(١) قوله تشمير شهواته : أى تشديدها وتقويتها .

(بيان الطريق الجملى فى تغيير الأخلاق ومعالجة الهوى)

اعلم أن المقصود من المجاهدة والرياضة بالأعمال الصالحة تكميل النفس وتزكيتها وتصفيتها لتهذيب أخلاقها ، وبين النفس وبين هذه القوى نوع من العلاقة تضيق العبارة عن تعريفه على وجه يتشكل فى خزانة التخيل لأن هذه العلاقة ليست محسوسة بل معقولة وليس من غرضنا بيان تلك العلاقة ولكن كل واحد من النفس والبدن متأثر بسبب صاحبه فإن النفس إن كملت وكانت زاكية حسنت أفعال البدن وكانت جميلة — وكذا البدن إن جملت آثاره حدث منها فى النفس هيئات حسنة وأخلاق مرضية ، فإذاً الطريق إلى تزكية النفس اعتياد الأفعال الصادرة من النفوس الزاكية الكاملة حتى إذا صار ذلك معتادا بالتكرر مع تقارب الزمان حدث منها هيئة للنفس راسخة تقتضى تلك الأفعال وتتقاضاها بحيث يصير ذلك له بالعادة كالطبع فيخف عليه ما كان يستثقله من الخير ، فمن أراد مثلا أن يحصل لنفسه خلق الجود فطريقه أن يتكلف تعاطى فعل الجواد وهو بذل المال ولا يزال يواظب عليه حتى يتيسر عليه فيصير بنفسه جوادا — وكذا من أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع وغلب عليه التكبر فطريقه فى المجاهدة أن يواظب على أفعال المتواضعين مواظبة دائمة على التكرر مع تقارب الأوقات ، والعجب أن الأمر بين النفس والبدن دور إذ بأفعال البدن تكلفا يحصل للنفس صفة ، فإذا حصلت الصفة فاضت على البدن فاقتضت وقوع الفعل الذى تعوده طبعا بعد أن كان يتعاطاه تكلفا ،

والأمر فيه كالأمر فى سائر الصناعات فإن من أراد أن يصير له الحذق فى الكتابة صفة نفسية ثابتة ، فطريقه أن يتعاطى ما يتعاطاه الكاتب الحاذق وهو حكاية الخط الحسن متكلفا متشبها ، ثم لا يزال يواظب على تعاطى الخط الحسن حتى يصير له ذلك ملكة راسخة ويصير الحذق فيه صفة نفسانية فيصدر منه بالآخرة بالطبع ما كان يتكلفه ابتداء بالتصنع فكأن الخط الحسن هو الذى جعل خطه حسنا ولكن الأول متكلف والآخر بالطبع — وذلك بواسطة تأثر النفس — وكذلك من أراد أن يصير فقيه النفس فلا طريق له إلا ممارسة الفقه وحفظه وتكراره وهو فى الابتداء متكلف حتى ينعطف منه على نفسه وصف الفقه فيصير فقيه النفس بمعنى أنه حصل للنفس هيئة مستعدة نحو تخريج الفقه فيتيسر له ذلك طبعا مهما حاوله ، وكذلك الأمر فى جميع صفات النفس وكما أن طالب رتبة الفقه لا يحرم هذه الرتبة بتعطيل ليلة ولا ينالها بزيادة ليلة — فكذلك طالب كمال النفس لا ينالها بعبادة يوم ولا يحرمها بنقصان يوم ولكن تعطله فى يوم واحد يدعو إلى مثله ، ثم يتداعى قليلا قليلا حتى تأنس النفس بالكسل وتهجر التحصيل فيفوته فضيلة الفقه ، فكذا صغائر المعاصى بعضها يدعو إلى بعض وكما أن تكرار ليلة لا يحس بأثره فى تفقه النفس فإنه يظهر شيئا فشيئا مثل نمو البدن وارتفاع القامة — فكذلك الطاعة الواحدة قد لايحس أثرها فى النفس وكمالها فى الحال ولكن ينبغى أن لا يستهان بها فإن الجملة مؤثرة وإنما جمعت من الآحاد فلكل واحد تأثير ، ثم مامن طاعة إلا ولها أثر ما وإن خفى — وكذلك المعصية وكم من فقيه

مسوف يستهين بتعطيل يوم وليلة ، وهكذا على التوالى فيفوته كمال العلم فكذا من يستهين بصغار المعاصى ينتهى به الأمر إلى حرمان السعادة وكم من فقيه موفق لا يستهين بتعطيل يوم وليلة فهكذا على التوالى فيحرز كمال النفس والعلم فكذا من لا يستهين بصغار المعاصى ينتهى به الأمر إلى درجات السعادة إذ القليل يدعو إلى الكثير ، ولذلك قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه الإيمان يبدو فى القلب نكتة بيضاء كلما ازداد الإيمان ازداد ذلك البياض فإذا استكمل العبد الإيمان ابيض القلب كله وأن النفاق يبدو فى القلب نكتة سوداء كلما ازداد النفاق ازداد ذلك السواد ، فإذا استكمل العبد النفاق اسود القلب كله .

(بيان مجامع الفضائل التى بتحصيلها تنال السعادة)

إذا عرف أن السعادة تنال بتزكية النفس وتكميلها وأن تكميلها باكتساب الفضائل كلها فلا بد من أن يعرف الفضائل جملة وتفصيلا . فأما الفضائل بجملتها فتنحصر فى معنيين (أحدهما) جودة الذهن والتمييز (والآخر) حسن الخلق . أما جودة الذهن فليميز بين طريق السعادة والشقاوة فيعمل به وليعتقد الحق فى الأشياء على ماهى عليه عن براهين قاطعة مفيدة لليقين لا عن تقليدات ضعيفة ولا عن تخييلات مقنعة واهية ، وأما حسن الخلق فبأن يزيل جميع العادات السيئة التى عرّف الشرع تفاصيلها ويجعلها بحيث يبغضها فيجتنبها كما يجتنب المستقذرات وأن يتعود العادات الحسنة ويشتاق إليها فيؤثرها ويتنعم

بها كما قال عليه السلام (جعلت قرة عينى فى الصلاة) ومهما كانت العبادات وترك المحظورات مع استثقال وكراهة فذلك لنقصان ولا ينال كمال السعادة به . نعم المواظبة عليه بالمجاهدة غاية الخير ولكن لا بالإضافة إلى فعله عن طوع ورغبة وإنما قيل الحق مرّ بالإضافة إلى من لم يتهذب ، فبقى فيه صوارف عن الحق — ولذلك قال تعالى (وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين) ولذلك قال عليه السلام إن استطعت أن تعمل فى الرضى لله فاعمل وإلا ففى الصبر على ما تكره خير كثير ، ثم لا يكفى فى نيل السعادة استلذاذ الطاعة واستكراه المعصية فى زمان دون زمان بل ينبغى أن يكون ذلك على الدوام فى جملة العمر ، وكل ما كان العمر أطول كانت الفضيلة أرسخ وأكمل — ولذلك لما سئل عليه السلام عن السعادة . قال : طول العمر فى طاعة الله — ولذلك كره الأنبياء والأولياء الموت فإن الدنيا مزرعة للآخرة ، وكلما كانت العبادات أكثر بطول العمر كان الثواب أكثر والنفس أزكى وأطهر وكمالها أتم وابتهاج صاحبها بجمالها عند التجرد عن علائق البدن أشد وأوفر — وذلك إذا تنبه عن نومه الذى أغفله عن إدراك حال نفسه من جمال يبتهج به أو خزى وخيال يفتضح به — وذلك التنبه باطراح الشواغل ، فالناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ، فهذه مجامع الفضائل وغايتها أن تصدر منه الفضائل أبداً بغير فكر وروية وتعب ويطلع على الحق بغير تعب طويل حتى كأنه يصدر منه وهو فى غفلته كالصانع الحاذق فى الخياطة والكتابة ، وغاية الرذالة أن ترشح منه الرذائل بغير تكلف ولا فكر ولا روية (واعلم) أن هذه الفضائل المحصورة فى فن نظرى وفى فن

عملى يحصل كل واحد منها على وجهين (أحدهما) بتعلم بشرى و تكلف اختيارى يحتاج فيه إلى زمان وتدرب وممارسة ، وبتقوى الفضيلة فيه شيئاً فشيئاً خفى التدريج كتدريج الشخص فى النمو وإن كان فى الناس من يكفيه أدنى ممارسة وذلك بحسب الذكاء والبلادة (والثانى) يحصل بجود إلهى نحو أن يولد الإنسان فيصير بغير معلم عالماً كعيسى بن مريم ويحيى ابن زكريا ، وكذا سائر الأنبياء الذين حصل لهم من الإحاطة بحقائق الأمور مالم يحصل لطلاب العلم بالتعلم ، وقيل إن ذلك قد يحصل أيضا بغير الأنبياء وهم الذين يعبر عنهم بالأولياء وهذا الآن رزق لا يمكن اكتسابه بالجهد فمن حرم ذلك فليجتهد أن يكون من الفريق الثانى وليعلم نزول رتبته عن رتبة أولئك (فليس التكحل فى العينين كالكَحَل) ولا ينبغى أن تستبعد أن يكون بالطبع فى مبدأ الفطرة من العلوم مايحصل بالجهد والاكتساب كما يكون ذلك فى الأخلاق ، فرب صبى صادق اللهجة سخى جرىء ، وربما يخلق بخلافه ـ وذلك يحصل بالتأديب والتربية ، فإذا الفضيلة تارة تحصل بالطبع وطوراً بالاعتياد [1] ومرة بالتعلم ، فمن تضافرت فى حقه الجهات الثلاث حتى صار ذا فضيلة طبعاً واعتياداً وتعلما فهو فى غاية الفضيلة ، ومن كان رزلا من هذه الجهات الثلاث فهو فى غاية الرزالة ، وبينهما رتبـــة من اختلفت فيه هذه الجهات .

---

(١) لايخفى الفرق بين الاعتياد والتعلم على أذكياء الطلاب حيث ان الأول قد يكون غير مصحوب بعلم كحال الصبى الذى يعوده أبواه على شىء بلا دراية منه بحقيقة ذلك الشىء . انتهى مصححه .

(بيان تفصيل الطريق إلى تهذيب الأخلاق)

ينبغي أن تعلم أن علاج النفس بمحو الرزائل عنها وبكسب الفضائل مثاله علاج الأبدان بمحو العلل عنها وبكسب الصحة لها وكما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال — وإنما تعترى العلة المغيرة للاعتدال — بعوارض الأغذية وغيرها ، فكذا كل مولود يولد على الفطرة . فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه . والمقصود أنه بالتعليم والاعتياد يكتسب الرزائل ، وكما أن البدن فى الابتداء لا يخلق كاملا وإنما يكمل بالنشو والتربية بالغذاء — فكذلك النفس تخلق ناقصة وإنما تكمل بالتزكية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم وكما أن البدن إن كان صحيحا فشأن الطبيب تمهيد القانون الحافظ للصحة فإن كان مريضا فشأنه جلب الصحة إليه فكذا النفس منك أن كانت زاكية طاهرة مهذبة الأخلاق فينبغى أن تسعى لحفظ صحتها وجلب مزيد قوة وصفاء اليها ، وإن كانت عديمة الكمال والصفاء فينبغى أن تسعى فى جلبه إليها وكما أن العلة المغيرة للاعتدال الموجبة للمرض لا تعالج إلا بضدها إن كانت من حرارة فبالبرودة وبالعكس — فكذا الرزيلة الموجبة لنقصان النفس علاجها بضدها كما سبق من علاج الجهل بالتعلم والبخل بالتسخى تكلفا والكبر بالتواضع تكلفا والشره بالكف عن المشتهى تكلفا ؛ وكما أن كل مبرد لا يكفى لعلة أوجبتها الحرارة إلا إذا كان على حد مخصوص ، ويختلف ذلك بالشدة والضعف والدوام وعدمه وبالكثرة والقلة ولا بد له من عيار يعرف به مقدار النافع منه ، فإن لم يحفظ عيازه زاد الفساد —

فكذلك النقيض الذى يعالج به الأخلاق لا بد له من عيار ، وكما أن عيار الدواء مأخوذ من عيار العلة حتى ان الطبيب لا يعالج مالم يعرف أن العلة من حرارة أو برودة وإن كانت الحرارة فما درجتها أهى ضعيفة أو قوية ، فإذا عرف التفت معه إلى أحوال البدن وأحوال الزمان والصناعة التى المريض بصددها وعالج بحسبها — فكذلك الشيخ المتبوع الذى يطب نفوس المريدين والمسترشدين ينبغى أن لا يهجم عليهم بالرياضة والتكاليف فى فن مخصوص مالم يعرف أخلاقهم ، فإذا عرف ماهو الغالب على المريد من الخلق السيىء وعرف مقداره ولاحظ حاله وسنه وما يحتمله من المعالجة عين له الطريق ولذلك ترى الشيخ يشير على بعض المريدين أن يخرج إلى السوق للكدية ، وذلك إن توسم فيه نوع رياسة وتكبر فيعالجه بإيراده ذلاً وهو نقيض خلقه حتى ينكسر به تكبره ويشير على بعضهم بتعهد بيت الماء واعداد نبل الاستنجاء وذلك إذا رأى نفسه مائلة إلى الرعونة فى النظافة المجاوزة حد الاعتدال وقد يشير عليه بالصوم ويأمره بالوصال إلا بمقدار يخرج به عن موجب النهى — وذلك إذا رآه شاباً قوى الشهوة مولعا بشهوة البطن والفرج إلى غير ذلك من طرق التهذيب ، وعن بعضهم أنه كان يعالج قوة الغضب ويتكلف صفة الحلم فكان يعطى السفهاء الأجرة ليجبهوه بالشتم فى المحافل فيتعود احتماله فصار بحيث يضرب به المثل فى الحلم ، وكان آخر يدرّج نفسه فى الشجاعة فيركب البحر فى الشتاء ، وآخر كان يهىء المآكل الطيبة ويطعمها غيره بحضرته وهو يقتصر على خبز الشعير

لكسر الشره ، وعباد الهند يعالجون الكسل عن العبادة بالقيام طول ليلة على رجل واحدة لا ينتقل عنها ، وآخر عالج حب المال بأن باع كل ماله ورمى بثمنه فى البحر ، فهذا طريق جلى فى تهذيب الأخلاق ، والكلام فى تفصيله يطول ، والغرض أن تنظر أيها المتشوق إلى تزكية نفسك فى أخلاقك ، فإن كانت مهذبة فاحفظها وإن كانت مائلة فقومها بالرد إلى حد الاعتدال على ماسيأتى تفصيله ، فإن المقصود من جلب الاعتدال سلب الطرفين إذ الغرض تطهير النفس عن الصفات التى تلحقها بعوارض البدن حتى لاتلتفت إليها بعد المفارقة عاشقة ومتأسفة على فوتها وممنوعة بالاشتغال والتألم بها عن السعادات اللائقة بجوهرها ، ومهما أردنا أن لايكون الماء حارا ولا باردا طلبنا فيه الاعتدال وكان الفاتر لاحارا ولا باردا ، فكذلك هذه الصفات ، فإن قلت فبماذا أعلم أن الحاصل لى هو الخلق الجميل وهو الوسط المعتدل بين طرفى الإفراط والتفريط ، فطريقك أن تنظر فى الأفعال التى يوجبها ذلك الخلق الذى فيه مجاهدتك فإذا التذذت بفعله (فاعلم) أن الخلق الموجب له راسخ فى نفسك فان كان ذلك الفعل قبيحا (فاعلم) أن الخلق قبيح مثل أن تلتذ بامساك المال وجمعه ، فموجبه خلق البخل فعود نفسك نقيضه والأخلاق الحسنة والسيئة قد فصلها الشرع ويجمعها ماصنف فى آداب النبى عليه السلام وهى مشهورة وسنشير إلى جملها ونعنى بالاعتدال أنك لو كنت تلتذ بالإسراف فى تفريق المال فتعلم أن هذا أيضا مذموم وهو الذى يعبر عنه بالتبذير ، والمحمود المعتدل هو السخاء الواقع بين التحرق والتبذير وهو أن يتيسر عليك بذل مايقتضى

الشرع والعقل بذله عن طوع ورغبة ويتيسر عليك إمساك مايقتضى الشرع والعقل إمساكه عن طوع ورغبة وكذا فى سائر الصفات والواحد منها كاف فى المثال ، وإذا عرفت أن معيار الأعمال مأخوذ من مقدار الصفات والأخلاق لم يخف عليك أن الطريق فى هذا تختلف باختلاف الأشخاص وتختلف فى حق شخص واحد باختلاف الأحوال ، فمن رزق البصيرة تتبع العلة وعالجها بطريقها ، ولما كان أكثر الناس يعجزون عنه وعسر على الشرع تفصيل يفى بجميع الأشخاص فى جميع الأعصار اقتصر الشرع فى التفصيل على القوانين المشتركة التى تعم جدواها من الطاعات وترك المعاصى المحذورة ثم رغب عن المباحات التى تقصد للتلذذ بأمور جليه كقوله (حب الدنيا رأس كل خطيئة) وأمثاله ثم عرف أهل البصيرة منه غاية المطلوب وطريقه وغاية المحذور وطريقه ووقفوا به على التفصيل وأرشدوا إليه من وفق لاتباعهم فكانوا نواباً عن الأنبياء فى تفصيل ماأجملوه وشرح مامهدوه ، ولذلك قال عليه السلام (العلماء ورثة الأنبياء) .

(بيان أمهات الفضائل)

الفضائل وإن كانت كثيرة فتجمعها أربعة تشمل شعبها وأنواعها وهى الحكمة والشجاعة والعفة والعدالة ، فالحكمة فضيلة القوة العقلية ، والشجاعة فضيلة القوة الغضبية ، والعفة فضيلة القوة الشهوانية ، والعدالة عبارة عن وقوع هذه القوى على الترتيب الواجب ، فبها تتم جميع الأمور ولذلك قيل بالعدل[1] قامت السموات والأرض ،

(١) فإن الإنسان الذى هو عنوان مجموع العالم الأكبر لا تكمل حقيقته فيصير حقيقة جمعية كاملة إلا بالعدالة . فتدبر .

فلنشرح آحاد هذه الأمهات ثم لنشرح بيانها وماينطوى من الأنواع تحتها
فأما الحكمة فنعنى بها ماعظم الله تعالى فى قوله (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيرا) وما أراده رسول الله حيث قال (الحكمة ضالة المؤمن) وهى منسوبة إلى القوة العقلية وقد عرفت فيما سبق أن للنفس هى منسوبة إلى القوة العقلية وقد عرفت فيما سبق أن النفس قوتين (إحداهما) تلى جهة فوق وهى التى بها تتلق حقائق العلوم الكلية الضرورية والنظرية من الملأ الأعلى وهى العلوم اليقينية الصادقة أزلا وأبدا لا تختلف باختلاف الاعصار والأمم كالعلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وكتبه ورسله وأصناف خلقه فى العالم بل من جملة العلم أن النفى والاثبات لايصدقان على شىء واحد فى حال واحدة وكذلك العلوم الحقيقية، فهذه العلوم هى الحكمة الحقيقية (والقوة الثانية) هى التى تلى جهة تحت أعنى جهة البدن وتدبيره وسياسته وبها تدرك النفس الخيرات فى الأعمال وتسمى العقل العملى وبها يسوس قوى نفسه ويسوس أهل بلده وأهل منزله، واسم الحكمة لها من وجه كالمجاز لأن معلوماتها كالزيبق تتقلب ولا تثبت فمن معلوماتها أن بذل المال فضيلة، وقد يصير رذيلة فى بعض الأوقات وفى حق بعض الأشخاص — فلذلك كان اسم الحكمة بالأول أحق وهذا الثانى كالكمال والتتمة للأول — وهذه هى الحكمة الخلقية والأولى هى الحكمة العلمية النظرية ونعنى بالحكمة الخلقية حالة وفضيلة للنفس العاقلة بها تسوس القوة الغضبية والشهوانية وتقدر حركاتها بالقدر الواجب فى الانقباض والانبساط وهى العلم بصواب الأفعال

وهذه الفضيلة تكتنفها رذيلتان وهما الخب والبله فهما طرفا إفراطها وتفريطها ، أما الخب فهو طرف إفراطها وهو حالة يكون بها الانسان ذا مكر وحيلة باطلاق الغضبية والشهوانية يتحركان إلى المطلوب حركة زائدة على الواجب ، وأما البله فهو طرف تفريطها ونقصانها عن الاعتدال وهى حالة للنفس تقصر بالغضبية والشهوانية عن القدر الواجب ومنشأ بطؤ الفهم وقلة الاحاطة بصواب الأفعال ، وأما الشجاعة فهى فضيلة للقوة الغضبية لكونها قوية ومع قوة الحمية منقادة للعقل المتأدب بالشرع فى إقدامها وإحجامها وهى وسط بين رذيلتيها المطيفتين بها وهما التهور والجبن ، فالتهور لطرف الزيادة عن الاعتدال وهى الحالة التى بها يقدم الانسان على الأمور المحظورة التى يجب فى العقل الإحجام عنها ، وأما الجبن فلطرف النقصان وهى حالة بها تنقص حركة الغضبية عن القدر الواجب فتصرف عن الاقدام حيث يجب الاقدام ، ومهما حصلت هذه الأخلاق صدرت منها هذه الأفعال أى يصدر من خلق الشجاعة الاقدام حيث يجب وكما يجب وهو الخلق الحسن المحمود وإياه أريد بقوله (أشداء على الكفار رحماء بينهم) فلا الشدة فى كل مقام محمودة ولا الرحمة ، بل المحمود ما يوافق معيار العقل والشرع ، فمن حصل له ذلك فليحفظه بالمواظبة على أفعاله ، ومن لم يحصل له فلينظر فان كان طبعه مائلا إلى النقصان الذى هو الجبن فليتعاط أفعال الشجعان متكلفا مواظبا عليه حتى يصير له الاعتياد طبعا وخلقا فيفيض منه أفعال الشجعان بعد ذلك طبعا وإن كان مائلا إلى طرف الزيادة وهو التهور فليُشْعِر نفسه بعواقب الأمور

وليعظم أخطارها وليتكلف الاحجام إلى الاعتدال أو مايقرب منه فان الوقوف على حقيقة حد الاعتدال شديد ولو تصور ذلك لارتحلت النفس عن البدن وليس معها علاقة منه فكانت لاتتعذب أصلا بالتأسف على مايفوتها منه ، وكان لا يتكدر عليها ابتهاجها بما يتجلى لها من جمال الحق وجلاله ولكن لما عسر ذلك قبل (وإن منكم إلا واردها) وقد رأى بعض المشايخ رسول الله فى المنام فقال ماالذى أردت بقولك (شيبتنى سورة هود) فقال قوله (فاستقم كما أمرت) يعنى الاستمرار على الصراط المستقيم وطلب الوسط بين هذه الأطراف شديد وهو أدق من الشعر وأحد من السيف كما وصف من حال الصراط فى الدار الآخرة ومن استقام على الصراط فى الدنيا استقام على الصراط فى الآخرة مستقيما إذ يموت المرء على ماعاش عليه ويحشر على مامات عليه * ولذلك وجب فى كل ركعة من الصلاة قراءة الفاتحة المشتملة على قوله (اهدنا الصراط المستقيم) فإنه أعقد الأمور وأعصاها على الطالب ولو كلف ذلك فى خلق واحد لطال العناء فيه * وقد كلفنا ذلك فى جميع الأخلاق مع خروجها عن الحصر كما سيأتى ولا مخلص عن هذه المحظورات إلا بتوفيق الله ورحمته ولذلك قال عليه السلام (الناس كلهم موتى إلا العالمون والعالمون كلهم موتى إلا العاملون * والعاملون كلهم موتى إلا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم) فنسأل الله تعالى أن يمدنا بتوفيقه لنجاوز الأخطار فى هذه الدار ولا ننخدع بدواعى الاغترار وأما العفة فهى فضيلة القوة الشهوانية وهى انقيادها على تيسر وسهولة للقوة العقلية حتى يكون

انقباضها وانبساطها بحسب إشارتها ٭ ويكتنفها رذيلتان الشره والخمود ٭ فالشره هو إفراط الشهوة إلى المبالغة فى اللذات التى تستقبحها القوة العقلية وتنهى عنها ٭ والخمود هو خمود الشهوة عن الانبعاث إلى ما يقتضى العقل نيله وتحصيله وهما مذمومان كما أن العفة التى هى الوسط محمودة ٭ وعلى الإنسان أن يراقب شهوته والغالب عليها الافراط لا سيما إلى مقتضى الفرج والبطن وإلى المال والرياسة وحب الثناء ٭ والافراط والتفريط فى كل ذلك نقصان وإنما الكمال فى الاعتدال ٭ ومعيار الاعتدال العقل والشرع وذلك أن يعلم الغاية المطلوبة من خلق الشهوة والغضب مثلا بأن يعلم أن شهوة الطعام إنما خلقت لتبعث على تناول الغذاء الذى يسد خلل ما ينحل من اجزائه بالحرارة الغريزية حتى يبقى البدن حياً والحواس سليمة ليتوصل بالبدن إلى نيل العلوم ودرك حقائق الأمور ويتشبه بالطبقة العليا بالاضافة إليه وهى رتبة الملائكة وبها كمالها وسعادتها ٭ ومن عرف هذا كان قصده من الطعام التقوى على العبادة دون التلذذ به فيقتصر ويقتصد لا محالة ولا يشتد إليه شرهه ويعلم أن شهوة الجماع خلقت فيه لتكون باعثة على الجماع الذى هو سبب بقاء النوع محفوظا ليطلب النكاح للولد والتحصن لا للعب والتمتع وإن تمتع ولعب كان باعثه عليه التألف والاستمالة الباعثة على حسن الصحبة ودوام النكاح ، ويقتصر من الأنكحة على القدر الذى لا يعجزه عن القيام بحقوقه ، ومن عرف ذلك سهل عليه الاقتصار ، وعند ذلك لا يقيس نفسه بصاحب الشرع عليه السلام إذ كان لا يشغله كثرة الأنكحة عن ذكر الله تعالى ولا يلزمه طلب الدنيا لأجل الأزواج ،

ومن ظن أن مالا يضر صاحب الشرع لا يضره كان كمن ظن أنه مالا يغير البحر الخضم من النجاسات لا يغير كوزاً مغترفا من البحر ، وأن ما لا يضر الشخص القوى البنية السوى من الأطعمة اللذيذة لا يضر الصبى الرضيع السخيف البنية ، وكم من أحمق يتكايس فيقيس نفسه بصاحب الشرع مقايسة الملائكة بالحدادين فيهلك من حيث لا يدرى. نعوذ بالله من عمش البصيرة فإنه يكاد يكون أردى من العمى إذ الأعمى يعتقد عجزه فيقلد فيهديه غيره ، والأعمش ينفتح من بصيرته بقدر ما يستنكف به من الاتباع ثم لا يكمل نوره بحيث يستكمل مبتمراً فى سواء السبيل ، ومن هذه حاله لا يبالى الله فى أى واد هلك ، ولقد رأيت جماعة من الحمقى العوام يتكايسون فى التصوف بآرائهم ويزعمون أن هذه الشهوات لم خلقت إن كان اتباعها مذموماً ومهلكا ولم يعلموا أن تحت خلق الشهوتين أعنى شهوة الفرج والبطن حكمتين عظيمتين (إحداهما) إبقاء الشخص بالغذاء والنوع بالحرث فإنهما ضروريتان فى الوجود بحكم إجراء الله سنته بمشيئة الله الأزلية التى لا يجد لها تبديلا ولا تحويلا (والثانية) ترغيب الخلق فى السعادات الأخروية فإنهم مالم يحسوا بهذه اللذات والآلام لم يرغبوا فى الجنة ولم يحذروا النار ولو وعدوا بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر لما أثر ذلك بمجرده فى نفوسهم هذا حد العفة ، وأما العدل فهو حالة للقوى الثلاث فى انتظامها على التناسب بحسب الترتيب الواجب فى الاستعلاء والانقياد فليس هو جزءاً من الفضائل بل هو عبارة عن جملة الفضائل فإنه مهما كان بين الملك وجنده ورعيته ترتيب محمود بكون الملك بصيراً قاهراً

وكون الجند ذوى قوة وطاعة وكون الرعية ضعفاء سلسى الانقياد قيل إن العدل قائم في البلد ولن ينتظم العدل بأن يكون بعضهم بهذه الصفات دون كلهم — وكذلك العدل فى مملكة البدن بين هذه الصفات ، والعدل فى أخلاق النفس يتبعه لا محالة العدل فى المعاملة والسياسة ويكون كالمتفرع منه ومعنى العدل الترتيب المستحب ، إما فى الأخلاق وإما في حقوق المعاملات وإما في أجزاء ما به قوام البلد ، والعدل فى المعاملة وسط بين رذيلتى الغبن والتغابن وهو أن يأخذ ماله أخذه ويعطى ماله أن يعطى ، والغبن أن يأخذ ماليس له ، والتغابن أن يعطى فى المعاملة ما ليس عليه حمد وأجر ، والعدل فى السياسة أن ترتب أجزاء المدينة الترتيب المشاكل لترتيب أجزاء النفس حتى يكون المدينة فى ائتلافها وتناسب أجزائها وتعاون أركانها على الغرض المطلوب من الاجتماع كالشخص الواحد فيوضع كل شيء موضعه وينقسم سكانه إلى مخدوم لا يخدم وإلى خادم ليس بمخدوم وإلى طبقة يخدمون من وجه ويخدمون من وجه آخر كما ذكرناه فى قوى النفس ، ولا يكتنف العدل رذيلتان بل رذيلة الجور المقابلة له إذ ليس بين الترتيب وعدم الترتيب وسط ، وبمثل هذا الترتيب والعدل قامت السموات والأرض حتى صار العالم كله كالشخص الواحد متعاون القوى والأجزاء وإذ قد ذكرنا جملة هذه الأمهات فلنذكر تفصيل ما يندرج تحت كل فضيلة ورذيلة من أنواع الفضائل والرذائل مبتدئين فيه بالقوة العقلية ثم الغضبية ثم الشهوانية ليكون ذلك أشفى فى البيان .

(بيان ما يندرج تحت فضيلة الحكمة ورذيلتيها من الخب والبله)

أما الحكمة فيندرج تحت فضيلتها حسن التدبير وجودة الذهن ونقاية الرأى وصواب الظن ، أما حسن التدبير فهو جودة الروية فى استنباط ما هو الأصلح والأفضل فى تحصيل الخيرات العظيمة والغايات الشريفة مما يتعلق بك أو تشير به على غيرك فى تدبير منزل أو مدينة أو مقاومة عدو ودفع شر ، وبالجملة فى كل أمر متفاقم خطير فإن كان الأمر هيناً حقيراً سمى كيسا ولم يسم تدبيراً ، وأما جودة الذهن فهو القدرة على صواب الحكم عند اشتباه الآراء وثوران النزاع فيها وأما نقاية الرأى فهو سرعة الوقوف على الأسباب الموصلة فى الأمور إلى العواقب المحمودة ، وأما صواب الظن فهو موافقة الحق لما تقتضيه المشاهدات من غير استعانة بتأمل الأدلة وأما رذيلة الخب فيندرج تحتها الدهاء والجربزة ، فالدهاء هو جودة استنباط ما هو أبلغ فى إتمام ما يظن صاحبه أنه خير وليس بخير فى الحقيقة ولكن فيه ربح خطير ، فإن كان الربح خسيسا سمى جربزة ، فالفرق بين الدهاء والجربزة يرجع إلى الحقارة والشرف ، وأما رذيلة البله فتندرج تحتها الغمارة والحمق والجنون ، فأما الغمارة فهى قلة التجربة بالجملة فى الأمور العملية مع سلامة التخيل ، وقد يكون الإنسان غمراً فى شىء دون شىء بحسب التجربة ، والغمر بالجملة هو الذى لم تحنكه التجارب (وأما الحمق) فهو فساد أول الروية فيما يؤدى إلى الغاية المطلوبة حتى ينهج غير السبيل الموصل ، فإن كان خلقة سمى حمقا طبيعيا ولا يقبل العلاج [1]

---

(١) لعل المراد عسر العلاج وإلا فالإنسان له أصل الاستعداد لأى كمال

وقد يحدث عند مرض فيزول بزوال المرض (وأما الجنون) فهو فساد التخيل فى انتقاء ما ينبغى أن يؤثر حتى يتجه إلى إيثار غير المؤثر ، فالفاسد من الجنون غرضه ، ومن الأحمق سلوكه إذ غرض الأحمق كغرض العاقل — ولذلك لا يعرف فى أول الأمر إلا بالسلوك إلى تحصيل الغرض والجنون هو فساد الغرض — ولذلك يعرف فى أول الأمر .

(بيان مايندرج تحت فضيلة الشجاعة)

وهو الكرم والنجدة وكبر النفس والاحتمال والحلم والثبات والنيل والشهامة والوقار ، أما الكرم فهو وسط بين البذخ والبذالة وهو طيب النفس بالإنفاق فى الأمور الجليلة القدر العظيمة النفع ، وقد يسمى حرية ، وأما النجدة فهو وسط بين الجسارة والانخذال وهو ثقة النفس عند استرسالها إلى الموت مهما وجب ذلك من غير خوف ، وأما كبر النفس فهو وسط بين التكبر وصغر النفس وهو فضيلة يقدر بها الإنسان أن يؤهل نفسه للأمور الجليلة مع استحقاره لها وقلة مبالاته بها ابتهاجا منه بقدر نفسه وجلالتها ، وأثره أن يقل سروره بالإكرام الكبير من العلماء ولا يسر بإكرام الأوغال ولا بالأمور الصغار ولا بما يجرى مجرى البخت والاتفاق من السعادات ، وأما الاحتمال فهو وسط بين الجسارة والهلع وهو حبس النفس عن مسايرة المؤذيات ، وأما الحلم فهو وسط بين الاستشاطة والانفراك وهى حالة تكسب النفس الوقار ، وأما الثبات فهو شدة النفس وبعدها من الخور ، وأما الشهامة فهو الحرص

على الأعمال توقعا للجمال ، وأما النبل فهو سرور النفس بالأفعال العظام، وأما الوقار فهو وسط بين الكبر والتواضع وهو أن يضع نفسه موضع استحقاقها لمعرفته بقدرها ، وأما رذيلتا الشجاعة وهما التهور والجبن فيندرج تحتها البذخ والبذالة والجسارة والنكول والتبجح وصغر النفس والهلع والاستشاطة والانفراك والتكبر والتخاسس والعجب والمهانة ، فما يميل منها إلى جانب الزيادة فهو تحت التهور ، وما يميل إلى جانب النقصان فهو تحت الجبن . فأما البذخ فهو الانفاق فيما لا يجب من الزينة وغيرها طلبا للصف ، وأما البذالة فهي الدناءة وترك الانفاق فيما يجب والافتخار بالأشياء الصغار ، وأما الجسارة فالاستهانة بالموت حيث لا تجب الاستهانة ، وأما النكول فهو الانقباض فيما لا يجب عنه الانقباض خوفا من الهلاك ، وأما التبجح فهو تأهيل النفس للأمور الكبار من غير استحقاق ، وأما صغر النفس فهو تأهيل النفس لما دون الاستحقاق. وأما الجسارة فهو قلة التأثر بأسباب الهلاك من غير أثر جميل تقتضيه، وأما الهلع فهو سوء احتمال الآلام والمؤذيات . وأما الاستشاطة فهو سرعة الغضب وحدته ، وأما الانفراك فهو بطؤ الغضب وبلادته وأما التكبر فهو رفع النفس فوق قدرها ، وأما التخاسس فحط النفس في الكرامة والتوقير إلى ما دون قدرها ، فإن كان على الوجه الواجب سمي تواضعا محمودا، والمولد للكبر هو العجب وذلك جهل الإنسان بمقدار نفسه وظنه أنها على رتبة عالية من غير أن يكون كذلك ، وذم الناس للتكبر والبخل أشد من ذمهم للتخاسس والتبذير فإنهما في غاية القبح ـ وهذان وإن كانا مذمومين فهما شبيهان بالسخاء والتواضع ، وربما يدق الفرق

بينهما فيظن أنهما محمودان وهما رذيلتان بالحقيقة مائلتان عن الوسط — ولذلك قال عليه السلام (طوبى لمن تواضع من غير منقصة وذل في نفسه من غير مسكنة) .

(بيان ما يندرج تحت فضيلة العفة ورذيلتيها)

أما فضائل العفة فهي الحياء والخجل والمسامحة والصبر والسخاء وحسن التقدير والانبساط والدماثة والانتظام وحسن الهيئة والقناعة والهدو والورع والطلاقة والمساعدة والتسخط والظرف . أما الحياء فهو وسط بين الوقاحة والخنوثة ، وقيل في حده إنه ألم يعرض للنفس عند الفزع من النقيصة ، وقيل إنه خوف الإنسان من تقصير يقع فيه عند من هو أفضل منه وقيل إنه رقة الوجه عند إتيان القبائح وتحفظ النفس عن مذمومة يتوجه عليها الحق فيها ، وبالجملة فإنه يستعمل في الانقباض عن القبيح ويستعمل في الانقباض عما يظنه المستحي قبحاً — وهذا الأخير يليق بالصبيان والنساء وهو مذموم من العقلاء ، والأول جميل من كل أحد والمراد بقوله .(إن الله يستحي من ذي شيبة في الإسلام أن يعذبه) أنه يترك تعذيبه ، وأما الخجل فهو فترة النفس [1] لفرط الحياء وإنما يحمد في الصبيان والنساء دون الرجال ، وإنما يستحي الإنسان ممن يكبر في نفسه ، فإما أن يستحي الناس فنفسه أخس عنده من غيره

---

(١) قوله فترة النفس : أي انكسارها وضعفها قال في المختار الفترة : الانكسار والضعف . انتهى مصححه .

ومن لا يستحي من الله فلعدم معرفته لجلاله ولذلك قال عليه السلام (استحيوا من الله حق الحياء) ولذلك قال تعالى (أو لم يعلم بأن الله يرى) فإنه مهما أحس في نفسه أن الله يراه فيستحي لا محالة إن كان متدينا معظما كما قال عليه السلام (لا ايمان لمن لا حياء له) لأن الحياء للإنسان هو أول أمارات العقل ، والايمان آخر مراتب العقل ، وكيف ينال المرتبة الأخيرة من لم يجاوز الأولى ، وأما المسامحة فهو التجافى عن بعض الاستحقاق باختيار وطيب نفس وهو وسط بين المناقشة والإهمال ، وأما الصبر فهو مقاومة النفس للهوى واحتباؤها عن اللذات القبيحة ، وأما السخاء فهو وسط بين التبذير والتقتير وهو سهولة الإنفاق وتجنب اكتساب الشيء من غير وجهه ، وأما حسن التقدير فهو الاعتدال في النفقات احترازاً عن طرفى التقتير والتبذير ، وأما الدماثة فهو حسن هيئة النفس الشهوانية فى الاشتياق إلى المشتهيات وأما الانتظام فهو حال للنفس يدعوها إلى نظر ما يقدره من النفقات حتى يناسب بعضها بعضا ، وأما حسن الهيئة فحبة الزينة الواجبة التى لا رعونة فيها ، وأما القناعة فحسن تدبير المعاش من غير خب ، وأما الهدو فسكون النفس فيما تناله من اللذات الجميلة ، وأما الورع فوسط بين الرياء والهتكة وهو تزيين النفس بالأعمال الصالحة الفاضلة طلبا لكمال النفس وتقربا إلى الله دون الرياء والسمعة ، وأما الطلاقة فهو المزاح بالأدب من غير فحش وافتراء وهو وسط بين الافراط والتفريط فى الجد والهزل ، وأما الظرف فهو وسط بين التقطيب الذى

هو الافراط فى التحاشى وبين الهزل وهو أن يعرف الإنسان طبقات الجلساء ويحفظ أوقات الأنس ويعطى كلاً ما هو أهله من المباسطة فى الوقت معه ، ولما كان الإنسان مفتقراً إلى استراحة ضرورية ترويحاً القلب لم يكن بد من نوع من العشرة ، والدعابة مستطابة غير مترقية إلى الهزل لكن بمقدار ما يفارق به الإنسان حد التوحش وسيرة الجفاة غير مجاوز إلى دأب المساخر فى المضحكات ، وقد نقل من دعابة رسول الله وأصحابه ماينبه على جنسه ولسنا نطول به ، وأما المسامحة فهو وسط بين الشكاسة والملق وهو ترك الخلاف والانكار على المعاشرين فى الأمور الاعتيادية إيثارا للتلذذ بالمخالطة ، وأما التسخط فهو وسط بين الحسد والشماتة وهو الاغتمام بالخيرات الواصلة إلى من لم يستحقها الشرور التى تلحق من لا يستحقها ، وأما الرذائل المندرجة تحت رذيلتى العفة فهى الشره وكلال الشهوة والوقاحة والتخنث والتبذير والتقتير والرياء والهتكة والكزازة والمجانة والعبث والتحاشى والشكاسة والملق والحسد والشماتة فأما الوقاحة فلجاج النفس فى تعاطى القبيح من غير احتراز من الذم ، وأما التخنث فحال يعترى النفس من إفراط الحياء يقبض النفس عن الانبساط قولا وفعلا ، وأما التبذير فافناء المال فيما لا يجب وفى الوقت الذى لا يجب فيه وأكثر مما يجب ، وأما التقتير فهو الامتناع من إنفاق ما يجب وسببه البخل والشح واللؤم ولكل واحد من هذه الثلاثة رتبة ، أما البخيل فهو الذى يفرط ويقصر فى الإنفاق خوفا من أن تضطره الفاقة إلى المسألة والتذلل للأعداء وكأن سبب البخل هو الجبن عند البحث ،

وأما الشحيح فهو الذى يجمع إلى ماذكرناه أن يكره حسن حال غيره طمعا فى أن يضطره إلى الحاجة إليه فينال به الجاه والرفعة ومنشأ هذا ضرب من الجهل ، وأما اللئيم فهو الذى يجمع إلى هذه الصفات احتمال العار فى الشىء الحقير وسببه نوع من الخبث - وذلك مثل المتلصص والديوث ، وأما الرياء فهو التشبه بذوى الأعمال الفاضلة طلبا للسمعة والمفاخرة وأما الهتك فالاعراض عن تزيين النفس بالأعمال الفاضلة والمجاهرة بأضدادها ، وأما الكزازة [1] فالافراط فى الجد ، واما المجانة فالافراط فى الهزل ، وأما العبث فافراط فى الاعجاب بلقاء الجليس والأنيس ، وأما التحاشى فإفراط فى التبرم بالجليس وأما الشكاسة فمخالفة المعاشرين فى شرائط الأنس ، وأما الملق فالتحبب إلى المعاشرين مع التغافل عما يلحقه من عار الاستخفاف وأما الحسد فالاغتمام بالخير الواصل إلى المستحق الذى يعرفه الحاسد ، وأما الشماتة فالفرح بالشر الواصل إلى غير المستحق ممن يعرفه الشامت ، وأما العدالة فجامعة لجميع الفضائل والجور المقابل لها فجامع لجميع الرذائل ، ومامن خلق من هذه الأخلاق إلا وقد ورد فى فضائله أخبار باعثة عليه وفى رذائله زواجر عنه ولم نر تطويل الكتاب بها ، فليطلب ذلك من آداب النبى عليه السلام وغيره من الكتب ، وإنما الغرض بيان أن الإنسان بسبب هذه القوى الثلاث بصدد هذه الأخلاق كلها ولكل واحد طرفان وواسطة وهو مأمور بالتوسط والاستقامة بين طرفى الافراط

---

(١) قال فى المختار الكزازة الإنقباض واليبس انتهى والمراد هنا ما ذكره المصنف انتهى مصححه .

والتفريط فى جملة ذلك حتى إذا حصل ذلك كله كمل كمالا يقربه إلى الله تقريبا بالرتبة لا بالمكان بحسب قرب الملائكة المقربين من الله عزوجل ، فلله البهاء الأعظم والكمال الأتم ، وكل موجود فمشتاق إلى الكمال الممكن له وهو غايته المطلوبة منه فإن ناله التحق بأفق العالم الذى فوقه وإن حرم عنه انحط إلى الحضيض الذى تحته ، فالإنسان بين أن ينال الكمال فيلتحق فى القرب من الله بأفق الملائكة وذلك سعادته أويقبل على ما هو مشترك بينه وبين البهائم من رذائل الشهوة والغضب فينحط إلى درجة البهائم ويهلك هلاكا مؤبداً وهو شقاوته ، ومثاله الفرس الجواد الذى كماله فى شدة عدوه فإن عجز عن ذلك حط إلى رتبة مادونه فاتخذ حمولة وأكولة ، ومراتب الكمال للإنسان بحسب هذه الأخلاق وبحسب العلوم غير منحصرة ـ ولذلك تتفاوت درجات الخلق فى الآخرة كما تتفاوت فى الدنيا فى الخلق والأخلاق والثروة واليسار وسائر الأحوال .

(بيان البواعث على تحرى الخيرات والصوارف عنها)

أما الخيرات الدنيوية فالبواعث عليها ثلاثة أنواع الترغيب والترهيب بمايجرى ويخشى فى الحال والمآل ، والثانى رجاء المحمدة وخوف المذمة ممن يعتد بحمده وذمه ، والثالث طلب الفضيلة وكمال النفس لأنه كمال وفضيلة لا لغاية أخرى وراءها فالأول مقتضى الشهوة وهى رتبة العوام ، والثانى من مقتضى الحياء ومبادىء العقل القاصر وهو من أفعال السلاطين وأكابر الدنيا ودهاتهم المعدودين من جملة

العقلاء بالإضافة إلى العوام والثالث مقتضى كمال العقل وهو فعل الأولياء والحكماء ومحققى العقلاء ولتفاوت هذه الرتب قيل (خير ما أعطى الإنسان عقل يردعه فإن لم يكن فحياء يمنعه فإن لم يكن فخوف يزعجه فإن لم يكن فمال يستره فإن لم يكن فصاعقة تحرقه فيستريح منه العباد والبلاد) وهذا التفاوت يعهد لكل شخص من صباه إلى كبره إذ هو فى ابتداء صباه لا يمكن زجره وحثه بالحمد والذم بل بمطعوم حاضر أوضرب ناجز يحس به ، فإذا صار مميزا مقاربا للبلوغ أمكن زجره وحثه بالمحمدة والمذمة ، فطريق زجره مذمة المزجور عنه وتقبيح حال متعاطيه وطريق ترغيبه فى تعلم الأدب وغيره تكثرة الثناء على آتيه وكثرة الذم لمجتنبيه فيؤثر ذلك تأثيرا ظاهرا ، وأكثر الخلق لا يجاوزون هاتين المرتبتين إلى الرتبة الثالثة فيكون إقدامهم وإحجامهم صادرة عن هذه البواعث والصوارف ، وأما الرتبة الثالثة فيعز وجودها والخيرات الأخروية أيضا هذا شأنها ـ وبهذا الطريق تتفاوت الناس فيها إذ لا فرق بين الأخروية والدنيوية إلا بتأخر وتقدم وإلا فالخير مطلوب كل عاقل عاجلا وآجلا ، والبواعث على الطلب لا تعدو هذه الاقسام فكأن من أطاع الله وترك معصيته فرتبته ثلاث (الأولى) من يرغب فى ثوابه الموصوف له فى الجنة أو يخاف من عقابه الموعود له فى النار ، وهذه الرتبة للعامة وهم الأكثرون (والثانية) رجاء حمد الله ومخافة ذمه أعنى حمدا وذما فى الحال من جهة الشرع ـ وهذه منزلة الصالحين وهى أقل من الأولى بكثير (والثالثة) وهى العزيز الفذ رتبة من لا يبتغى إلا التقرب إلى الله تعالى وطلب مرضاته وابتغاء وجهه والالتحاق بزمرة المقربين

إليه زلفى من ملائكته وهو درجة الصديقين والنبيين ولذلك قال تعالى «(واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه)» وقيل لرابعة العدوية ألا تسألين الله الجنة فقالت الجار ثم الدار ، وقال بعضهم من عبد الله لعوض فهو لئيم ، ولما كان العقل الضعيف لا يقف على كنه هذا المعنى ، وأكثر العقول ضعيفة خلق الله الجنة والنار ووعد الخلق بهما زجرا وحثا وأطنب فى وصفهما ولم يتعرض لهذه المعانى إلا بالمرامز مثل قوله تعالى (يريدون وجهه) (وأعددت لعبادى الصالحين مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) وأما الصوارف فقصور أو تقصير ، أما القصور فالمرض المانع والشغل الضرورى فى طلب قوت النفس والعيال وما يجرى مجراه — وهذا معذور غير مذموم إلا أنه عن ذروة الكمال محروم ولا دواء له إلا الفزع إلى الله تعالى لاماطة هذه الصوارف بجوده ، وأما التقصير فقسمان جهل وشهوة غالبة ، أما الجهل فهو أن لا يعرف الخيرات الأخروية وشرفها وحقارة متاع الدنيا بالإضافة إليها وهو على رتبتين (إحداهما) أن يكون عن غفلة وعدم مصادفة مرشد منبه - وهذا علاجه سهل ولاجله وجب أن يكون فى كل قطر جماعة من العلماء والوعاظ ينبهون الخلق عن غفلتهم ويرغبون عن الدنيا فى الآخرة لا على الوجه الذى ألفه أكثر وعاظ الزمن ، فهذا مما يجرّىء الخلق على المعاصى أو يحقر الدين عندهم (والثانية) أن يكون لاعتقادهم أن السعادة هى اللذات الدنيوية والرياسة الحاضرة وإن أمر الآخرة لا أصل له أو لأن الإيمان وحده كاف وهو مبذول لكل مؤمن كيف كان عمله أو يظن الاتكال

على عفو الله ينجيه وإن الله كريم رحيم لانقصان له من معصية العصاة فلابد أن يرحمهم ، وهذه أنواع من الحماقات فترت خلائق كثيرة عن الطاعات وجرأتهم على المعاصى ، فأما من ظن أن الآخرة لا أصل لها فهو الكفر المحض والضلال الصرف ، ومهما كان هذا الاعتقادمصمما بعدت الإنسانية عن صاحبه والتحق بالهلكى على كل حال ، وأمامن ظن أن مجرد الإيمان يكفيه فهو جهل بحقيقة الإيمان وغفلة عن قوله من قال (لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة) وإن معنى الإخلاص أن يكون معتقده وفعله موافقا لقوله حتى لا يكون منافقا ، وأقل درجاته ألا يتخذ إلهه هواه فمن اتبع هواه فهو عبده وصار إلهه هواه — وذلك يبطل قوله لا إله إلا الله وينافى إخلاصه ، ومن ظن أن سعادة الآخرة تنال بمجرد قوله لا إله إلا الله دون تحقيقه بالمعاملة كان كمن ظن أن الطبيخ يحلو بقوله طرحت السكر فيه دون أن يطرحه أو الولد يخلق بقوله وطأت الجارية دون أن يطأها ، والزرع ينبت بقوله بذرت البذر دون أن يبذره — وكما أن هذه المقاصد فى الدنيا لا تنال إلا بأسبابها — فكذلك أمر الآخرة فإن أمر الآخرة والدنيا واحد ، وإنما خص باسم الآخرة لتأخره . والخروج لقضاء العالم آخرة بالإضافة إلى الكون فى بطن الأم ، والبلوغ إلى عالم التمييز آخرة بالإضافة إلى ماقبله والبلوغ إلى رتبة العقلاء آخرة بالإضافة إلى ما قبلها ، وإنما هذه ترددفى أطوار الخلقة، والموت طور آخر من الأطوار ونوع آخر من الترقى وضرب آخر من الولادة والانتقال من عالم إلى عالم كما قال عليه السلام (القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة) ى ليس فى الموت إلا تبديل منزل

وكما أن من جلس متكلا على رحمة الله ونعمته متعطشا جائعا لم يسلك الطريق فى شرب الماء وتناول الخبز هلك ، ومن اتكل عليه فى طلب المال ولم يتجر لم يحصل له المال وكان شقيا ـ فكذا من أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا ، ولذلك نبه الله تعالى عليه فقال (وأن ليس للإنسان إلا ماسعى) ومهماعرف أن البهاء الأكمل لله وأن السعادة القصوى فى القرب عنه وأن القرب منه ليس بالمكان وإنما هو باكتساب الكمال على حسب الإمكان وأن كمال النفس بالعلم والعمل والاطلاع على حقائق الأمور مع حسن الأخلاق، فن لم يكمل كيف يقرب من الله تعالى، ومن أراد أن تقرب رتبته عند الملك بنوع من العلم لو تعطل فى بيته متكلا على كرم الملك ملازما صفة النقصان غير مجتهد طول الليل فى طلب العلم معولا على فضل الله فى أن يبيت ليله ويصبح أفضل أهل زمانه فإن فضل الله عز وجل أوسع له وقدرته متسعة لإضعافه قيل له [1] هذا فعل مشحون بالباطل والحماقة مزين الظاهر بكلام يظن أنه محمود فكذامن ظن أن الآخرة تنال بالبطالة والعطالة فهذه حاله .

(بيان أنواع الخيرات والسعادات)

نعم الله سبحانه وإن كانت لاتحصى مفصلة فجملتها منحصرة فى خمسة أنواع (الأول) السعادة الأخروية التى هى بقاء لافناء لهوسرور لاغم فيه وعلم لاجهل معه وغنى لا فقر معه يخالطه ولن يتوصل إليه

---

(١) قوله قيل له الخ خبر قوله ومن أراد أن تقرب .

إلا بالله ولا يكمل إلا بالنوع الثانى وهو الفضائل النفسية التى حصرنا جملتها من قبل فى أربعة أمور العقل وكماله العلم ، والعفة وكمالها الورع والشجاعة وكمالها المجاهدة والعدالة وكمالها الانصاف وهى على التحقيق أصول الدين ، وإنما تتكامل هذه الفضائل بالنوع الثالث وهى الفضائل البدنية المنحصرة فى أربعة أمور فى الصحة والقوة والجمال وطول العمر ويتممها النوع الرابع وهى الفضائل المطيفة بالإنسان المنحصرة فى أربعة أمور وهى المال والأهل والعز وكرم العشيرة ، ولا يتم الانتفاع بشىء من ذلك إلا بالنوع الخامس وهى الفضائل التوفيقية وهى أربعة هداية الله ورشده وتسديده وتأييده ، فهذه السعادات بعد السعادة الأخروية ستة عشر ضربا ، ولا مدخل للاجتهاد فى اكتساب شىء منها إلا الفضائل النفسية على الوجه الذى سبق ، فقد عرفت أن هذه الخيرات خمسة وهى الأخروية والنفسية والبدنية والخارجة والتوفيقية ، والبعض منها يحتاج إلى البعض إما حاجة ضرورية كالفضائل النفسية التى لا مطمع فى الوصول إلى نعيم الآخرة إلا بها وصحة البدن الذى لا وصول إلى تحصيل الفضائل النفسية إلا به . وإما حاجة نافعة كحاجة هذه الفضائل الخارجة فإن المال والأهل والعشيرة إن عدمت تطرق الخلل إلى أسباب هذه الفضائل ، فإن قلت فما وجه الحاجة إلى الفضائل الخارجة من المال والأهل والعز وكرم العشيرة .

(فاعلم) أن هذه الأمور جارية مجرى الجناح المبلغ والآلة المسهلة للمقصود ، أما المال فالفقير فى طلب الكمال كساع إلى الهيجاء بغير سلاح وكباز متصيد بلا جناح . ولذلك قال عليه السلام (نعم

المال الصالح للرجل الصالح) وقال نعم العون على تقوى الله المال كيف ومن عدم المال صار مستغرق الأوقات فى طلب القوت واللباس والمسكن وضرورات المعيشة فلا يتفرغ لاقتناء العلم الذى هو أشرف الفضائل، ثم يحرم عن فضيلة الحج والصدقة والزكاة وإفاضة الخيرات وأما الأهل والولد الصالح فالحاجة إليهما ظاهرة، أما المرأة الصالحة فحرث الرجل وحصين دينه قال عليه السلام (نعم العون على الدين المرأة الصالحة) وقال فى الولد (إذا مات الرجل انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له) ومهما كثر أهل الرجل وأقاربه وساعدوه كانوا له بمنزلة الآذان والأعين والأيدى فيتيسر له بسببهم من الأمور الدنيوية مايطول فيه شغله لو انفرد، وكلما تخففت الأشغال الضرورية فى الدنيا تفرغ القلب للعبادة والعلم فهو معين على الدين، وأما العز فبه يدفع الإنسان عن نفسه الضيم ولا يستغنى عنه مسلم فإنه لا ينفك عن عدو يؤذيه وظالم يقصده فيشوش عليه وقته ويشغل قلبه ـ ولذلك قيل الدين والسلطان توأمان، وقيل الدين أس والسلطان حارس وما لا أس له فمهدوم، وما لا حارس له فضايع ـ ولذلك قال تعالى (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض) وبالجملة دفع الأذى لابد منه للفراغ للعبادة، ولا يتم ذلك إلا بنوع من العز ـ وكما أن الموصل إلى الخير خير فدفع الصارف عن الخير خير أيضا، وأما كرم العشيرة وشرف الآباء فقد يستهان به ويقال المرء بنفسه والناس أبناء مايحسنون وقيمة كل امرىء مايحسنه، ولعمرى إذا قوبل شرف الأصل دون شرف النفس بشرف النفس دون شرف

الأصل استحقر شرف الأصل أما إذا انضم إليه لم تنكر فضيلته (فأين السرى إذا سرى اسراهما[١]) وقد شرط النسب فى الإمامة ، وقيل الأئمة من قريش وكيف لا والأخلاق تتبع الأمزجة وتسرى من الأصول إلى الفروع ولذلك قال عليه السلام (تخيروا لنطفكم) وقال (إياكم وخضراء الدمن) وهى المرأة الحسناء فى المنبت السوء ، فهذا أيضا من السعادات ولا نعنى به الانتساب إلى بنى الدنيا ورؤسها وأمرائها ولكن الانتساب إلى النفوس الزكية الطاهرة المزينة بالعلم والعبادة والعقل . فإن قلت فما غناء هذه الفضائل الجسمية ، فنقول أما الحاجة إلى الصحة والقوة وطول العمر فلا شك فيه وإنما يستحقر أمر الجمال فيقال يكفى أن يكون البدن سليما من الأمراض الشاغلة عن تحرى الفضائل ، ولعمرى ان الجمال لقليل الغناء ولكنه من السعادات والخيرات على الجملة أما فى الدنيا فلا يخفى وجهه وأما فى الآخرة فمن وجهين (أحدهما) أن القبح مذموم والطباع منه نافرة وحاجات الجميل إلى الإجابة أقرب فكأنه جناح مبلغ مثال المال ، والمعين على قضاء حاجات الدنيا معين على الآخرة إذ الوصول إلى الآخرة بهذه الأسباب الدنيوية (والثانى) أن الجمال فى الأكثر يدل على فضيلة النفس لأن نور النفس إذا تم إشراقه تأدى إلى البدن ، والمنظر والمخبر كثيرا ما يتلازمان ، ولذلك عول أصحاب الفراسة على هيئات البدن واستدلوا بها على الأخلاق الباطنة ، والعين والوجه كالمرآة للباطن ـ ولذلك يظهر فيهما

---

(١) أى أشدهما سيرا وكأنه مثل يريد به أين سرى رجل أى سيره ليلا من سرى آخر أشد منه وأكثر فى السير ؛

أثر الغضب والشر ، وقيل طلاقة الوجه عنوان مافى النفس وما فى الأرض قبيح إلاووجهه أقبح منه ، واستعرض المأمون جيشا فعرض عليه رجل قبيح فاستنطقه فإذا هو ألكن فأسقط اسمه وقال (الروح إن أشرقت على الظاهر ففصاحة وهذا ليس له ظاهر ولا باطن) وقد قال عليه السلام (اطلبوا الحاجة عند حسان الوجوه) وقال (إذا بعثتم رسولا فاطلبوا حسن الوجه وحسن الاسم) وقال الفقهاء إذا تساوت درجات المصلين فأحسنهم وجها أولاهم بالإمامة ، وقال تعالى ممتنا به (وزاده بسطة فى العلم والجسم) ولسنا نعنى بالجمال ما يحرك الشهوة فإن ذلك أنوثة وإنما نعنى به ارتفاع القامة على الاستقامة مع الاعتدال فى اللحم وتناسب الأعضاء وتناصف خلقة الوجه بحيث لا تنبو الطباع عن النظر إليها ، فإن قلت فما معنى الفضائل التوفيقية التى هى الهداية والرشد والتسديد والتأييد (فاعلم) أن التوفيق هو الذى لا يستغنى عنه الإنسان فى كل حال ومعناه موافقة إرادة الإنسان وفعله قضاء الله تعالى وقدره ، وهو صالح للاستعمال فى الخير والشر ولكن صار متعارفا فى الخير والسعادة . ووجه الحاجة إلى التوفيق بين — ولذلك قيل:

(إذا لم يكن عون من الله للفتى ... فأكثر مايجنى عليه اجتهاده)

وأما الهداية فلا سبيل لأحد إلى طلب الفضائل إلا بها فهى مبدأ الخيرات كما قال تعالى (أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) وقال تعالى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكى من يشاء) وقال عليه السلام (مامن أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله) أى بهدايته ، قيل ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا . والهداية ثلاث

منازل (الأولى) تعريف طريق الخير والشر المشار إليه بقوله عز وجل (وهديناه النجدين) وقد أنعم الله به على كافة عباده بعضهم بالعقل وبعضهم على ألسنة الرسل ، ولذلك قال تعالى (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) (والثانية) ما يمد به العبد حالا بعد حال بحسب ترقيه فى العلوم وزيادته فى صالح الأعمال وإياه عنى بقوله تعالى (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) (والثالثة) هو النور الذى يشرق فى عالم الولاية والنبوة فيهتدى به إلى مالا يهتدى إليه ببضاعة العقل الذى به يحصل التكليف وإمكان التعلم ، وإياه عنى بقوله تعالى (قل إن هدى الله هو الهدى) فأضافه إلى نفسه وسماه الهدى المطلق ، وهو المسمى حياة فى قوله (أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس) وبقوله تعالى (أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه) وأما الرشد فنعنى به العناية الإلهية التى تعين الإنسان على توجهه إلى مقاصده فتقويه على مافيه صلاحه وتفتره عمافيه فساده ، ويكون ذلك من الباطن كما قال تعالى (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين) وأما التسديد فهو أن يقوم إرادته وحركاته نحو الغرض المطلوب ليهجم عليه فى أسرع وقت ، فالرشد تنبيه بالتعريف ، والتسديد إعانة ونصرة بالتحريك ، وأما التأييد فهو تقوية أمره بالبصيرة من داخل وتقوية البطش من خارج وهو المراد بقوله تعالى(إذ أيدتك بروح القدس)، ويقرب منه العصمة وهو فيض إلهى يقوى به الإنسان على تحرى الخير وتجنب الشر حتى يصير كمانع من باطنه غير محسوس ، وإياه عنى بقوله (ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) ولن تستتب هذه الأمور إلا بما يمد الله به عبده من الفهم

الثاقب الصافى والسمع المصغى الواعى والقلب البصير المراعى والمعلم الناصح والمال الزائد على مقتضى المهمات لقلة القاصر لا مايشغل عن الدين لكثرته والعشيرة والعز الذى يصونه عن سفه السفهاء ويرفع ظلم الأعداء ، فبهذه الأسباب تكمل السعادات .

(بيان غاية السعادات ومراتبها)

اعلم أن السعادة الحقيقية هى الأخروية وماعداها سميت سعادة إما مجازاً أو غلطاً كالسعادة الدنيوية التى لا تعين على الآخرة ، واما صدقا ولكن الاسم على الأخروية أصدق ، وذلك كل ما يوصل إلى السعادة الأخروية ويعين عليه ، فإن الموصل إلى الخير والسعادة يسمى خيراً وسعادة ، والأسباب النافعة المعينة تشرحها تقسيمات أربعة (الأول منها) ما هو نافع فى كل حال وهى الفضائل النفسية ، ومنها ماينفع فى حال دون حال ونفعها أكثر كالمال القليل ، ومنها ما ضرره أكثر فى حق أكثر الخلق — وذلك بعض أنواع العلوم والصناعات، ولما كثر الالتباس فى هذا وجب على العاقل الاستظهار بمعرفة حقائق هذه الأمور حتى لا يؤثر الضار على النافع بل النافع على الوضيع والرفيع على الخسيس الأهم فيطول عليه الطريق ، فكم من ناظر يحسب الشحم فيمن شحمه ورم ، وكم من طالب حبلا ليتمنطق به فيأخذ حية فيظنها حبلا فتلدغه ، والعلم الحقيقى هو الذى يكشف عن هذه الأمور

(التقسيم الثانى) إن الخيرات بوجه آخر تنقسم إلى مؤثرة لذاتها وإلى مؤثرة لغيرها وإلى مؤثرة تارة لذاتها وتارة لغيرها ، فينبغى أن يعرف

مراتبها ليعطى كل رتبة حقها ، فالمؤثرة لذاتها السعادة الأخروية فليس وراء تلك الغـاية غاية أخرى ، والمؤثرة لغيرها من المـال كالدراهم والدنانير ، فلولا ان الحاجات تنقضى بها لـكانت كالحصباء وسائر الجواهر الخسيسة ، والمؤثرة تارة لذاتها وتارة لغيرها كصحة الجسم، فإن الإنسان وإن استغنى عن المشى الذى يراد سلامة الرجل له فيريد أيضا سلامة الرجل من حيث هى سلامة (والتقسيم الثالث) ان الخيرات تنقسم من وجه آخر إلى نافع وجميل ولذيذ ، والشرور ثلاثة ضار وقبيح ومؤلم ، فـكل واحد ضربان (أحدهما) مطلق وهو الذى يجمع الأوصاف الثلاثة فى الخير كالحـكمة فإنها نافعة وجميلة ولذيذة ، وفى الشر كالجهل فإنه ضار وقبيح ومؤلم (والثانى) مقيد وهو الذى جمع بعض هذه الأوصاف دون بعض ، فرب نافع مؤلم كقطع الأصبع الزائدة والسلعة الخارجة ، ورب نافع قبيح كالحمق فإنه راحة حيث قيل: استراح من لا عقل له أى لا يغتم للعواقب فيستريح فى الحال ، ورب نافع من وجه ضار من وجه كإلقاء المـاء فى البحر عند خوف الغرق فإنه ضار للمـال ونافع فى نجاة النفس ، والنافع قسمان قسم ضرورى كالفضائل النفسية والاتصال إلى سعادة الآخرة وقسم قد يقوم غيره مقامه فلا يكون ضروريا كالسكنجبين فى تسكين الصفرا (التقسيم الرابع) إن اللذات بحسب القوى الثلاث والمشتهيات الثلاثة ثلاث إذ اللذة هى عبارة عن إدراك المشتهى ، والشهوة عبارة عن انبعاث النفس لنيل ما تتشوقه لذة عقلية[1] وبدنية مشتركة مع جميع الحيوانات وبدنية

---

(١) قوله لذة عقلية بدل من قوله ثلاث .

مشتركة مع بعض الحيوانات ، أما العقليات كلذة العلم والحكمة وهى أقلها وجوداً وأشرفها ، أما قلتها فلأن الحكمة لا يستلذها إلا الحكيم ، وقصور الرضيع عن إدراك لذة العسل والطيور السمان والحلاوات الطيبة لا يدل على أنها ليست لذيذة ، واستطابته للبن لا تدل على أنه أطيب الأشياء ، والناس كلهم إلا النادر ممنوون فى صبا الجهل بالعنة فى رتبة العلم ، فلذلك يستلذون الجهل .

(ومن يك ذا فم مر مريض يجد مراً به الماء الزلالا)

وأما أشرفيتها فلأنها لازمة لا تزول ودائمة لا تحول وباقية لذاتها، وثمرها فى الدار الآخرة إلى غير نهاية ، والقادر على الشريف الباقى إذا رضى بالخسيس الفانى كان مصاباً فى عقله محروما بشقاوته وإدباره ، وأقل أمر فيه أن الفضائل النفسية لاسيما العلم والعقل لا يحتاج إلى أعوان وحفظة بخلاف المال ، فإن العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والعلم يزيد بالانفاق والمال ينقص به ، والعلم نافع فى كل حال ومطلقا وأبدا ، والمال تارة يجذب إلى الرذيلة وتارة إلى الفضيلة ، ولذلك ذم فى القرآن فى مواضع وإن سمى خيراً فى مواضع (الثانية) هى اللذة المشتركة بين الإنسان وبين سائر الحيوانات كلذة المأكل والمشرب والمنكح وهى أكثرها وجوداً (الثالثة) التى يشارك فيها الإنسان بعض الحيوانات وهى لذة الرياسة والغلبة ، وهى أشد التصاقا بالعقلاء ، ولذلك قيل آخر مايخرج من رؤس الصديقين حب الرياسة ، وكيف تكون لذة الجماع والأكل لذة مطلقة وهى من وجه إزالة ألم ، ولذلك قال الحسن (الإنسان صريع

جوع وقتيل شبع) وجميع لذات الدنيا سبع مأكل ومشرب ومنكح وملبس ومسكن ومشموم ومسموع ومبصر ، وهى بجملتها خسيسة. كما روى عن على كرم الله وجهه إذ قال لعمار بن ياسر وقد رآه يتنفس كالحزين ، ياعمار إن كان تنفسك على الآخرة فقد ربحت تجارتك وإن كان على الدنيا فقد خسرت صفقتك فإنى وجدت لذاتها المأكولات والمشروبات والمنكوحات والملبوسات والمسكونات والمشمومات والمسموعات والمبصرات ، فأما المأكولات فأفضلها العسل وهو صنعة ذباب ، والمشروبات أفضلها الماء وهو أهون موجود وأعز مفقود ، وأما المنكوحات فمبال فى مبال ، وحسبك أن المرأة تزين أحسن شىء منها ويراد أقبح شىء منها ، وأما الملبوسات فأفضلها الديباج وهو نسج دودة ، والمشمومات فأفضلها المسك وهو دم فارة، والمسموعات فريح هابة فى الهواء، والمبصرات فخيالات صائرة إلى الفناء — هذا كلامه — ومن آفاتها أن كل واحدة منها يتبرم بها بعد استيفائها فى لحظة ، فليعتبر حالة الفراغ عن الجماع والأكل بماقبله ، ولينظر كيف ينقلب المطلوب مهروبا عنه فى الحال ، فأين يوازى هذا ماتدوم لذته ولا تفنى أبد الآباد راحته ، وهـــو الابتهاج بكمال النفس بالفضائل النفسية خصوصا الاستيلاء على الكل بالعلم والعقل .

(بيان مايحمد ويذم من أفعال شهوة البطن والفرج والغضب)

أما شهوة البطن فداعية إلى الغذاء ، والمطعم ضربان ضرورى وغير ضرورى ، أما الضرورى فهو الذى لايستغنى عنه فى قوام البدن

كالطعام الذى يغتذى به والماء الذى يرتوى به ، وهو ينقسم إلى محمود ومكروه ومذموم ومحظور . أما المحمود فأن يقتصر على تناول مالايمكنه الاشتغال والتقوى على العلم والعمل إلا به ، ولو اقتصر عنه لتحللت قواه واختل بدنه ، فهذا المقدار إذا تناوله من حيث يحب كما يجب فهو معذور بل مشكور ومأجور ، إذ البدن مركب النفس لتقطع به منازلها إلى الله تعالى ، وكما أن الجهاد عبادة فامداد فرس المجاهدة بما يقويه على السير بالمجاهد أيضا عبادة ، ولذلك قال عليه السلام (عندأ كل الصالحين تنزل الرحمة) وذلك إذا تناوله تناول من اضطر إلى شىء يودلو استغنى عنه ، وإدخال الطعام البطن وإخراجه قريب ، ولذلك قيل من كان همته مايدخل فى بطنه كانت قيمته ما يخرج منه ، وليعلم الآكل أنه فى تناول فضلات الأشجار والنبات كالخنزير فى تناول عذرة الإنسان وفضلته ، وكالجعل فى تناول فضلة الحيوان ولو كان للأشجار ألسنة لناطقت متناول فضلاتها بالتشبيه بهذا المتناول لفضيلة الحيوان ، وأما المكروه فهو الاسراف والامعان من الحلال والزيادة على قدر البلغة ، قال عليه السلام (مامن وعاء أبغض إلى الله تعالى من بطن ملىء من حلال) وهو أيضا مضر من جهة الطب فإنه أصل كل داء ، قال عليه السلام (البطنة أصل الداء والحمية أصل الدواء وعوّدوا كل جسد ما اعتاد) فقال محققوا الاطباء لم يدع عليه السلام شيئاً من الطب إلا وأدرجه تحت هذه الكلمات الثلاث ، ولا ينبغى أن يستهين طالب السعادة بهذه الزيادة وإن سميناها مكروها لا محظورا فإنه مكروه سريع السياقة إلى

المحظورات بل إلى أكثر المحظورات ، فإن مثار الشرور قوة الشهوات ومقوى الشهوات هى الأغذية . فامتلاء البطن مقوى للشهوة وتقوية الشهوة داعية للهوى ، والهوى أعظم جند الشيطان الذى إذا تسلط سباه عن ربه وصرفه عن بابه ، وإمداد جنود الأعداء بالمقويات يكاد ينزل منزلة عين العداوة ، فلهذا يكاد تكون الكراهية فيه حظراً ، ولذلك قيل لبعضهم ما بالك مع كبرك لا تتعهد بدنك وقد انهد ، فقال لأنه سريع المرح فاحش الأشر فأخاف أن يجمح بى فيورّطنى ، ولأن أحمله على الشدائد أحب إلى من أن يحملنى على الفواحش ، فإن قلت فما المقدار المحمود (فاعلم) أنه نبه عليه السلام على التقدير بخبرين (أحدهما) قوله (حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن كان لا بد فثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس) فأما اللقيمات فهى دون العشرة ويقرب منه قوله عليه السلام (المؤمن يأكل فى معى واحد والمنافق يأكل فى سبعة أمعاء) والأحب الأكل فى سبع البطن ، فإن غلب النهم فى الثلث ، وأظن أن الحد ثلث فى حق الأكثر وإن كان ذلك قد يختلف باختلاف الأشخاص ، وعلى الجملة فلا بد أن يكون دون الشبع حتى يخف البدن للعبادة والتهجد بالليل وتضعف القوى عن الانبعاث إلى الشهوات ، وأما المحظور فهو التناول مما حرم الله عز وجل من مال الغير أو المحرمات ، وأفحشها شرب المسكر فإنه أعظم آلات الشيطان فى إزالة العقل الذى هو من حزب الله وأوليائه وإثارة الشهوة والقوى السبعية التى هى أحزاب الشيطان وأوليائه ، فهذا حكم المطاعم

على الإجمال ، ولا يطمعن أحد فى سلوك طريق السعادة قبل أن يراعى أمر المطعم فى مقداره ووجه حله فإن المعدة منبع القوى ، فكأنه الباب والمفتاح إلى الخير والشر جميعا ، ولذا عظم فى الشرع أمر الصوم لأنه على الخصوص يتوجه إلى قهر أعداء الله تعالى كما روى (ان الصوم لى وأنا الذى أجزى به) إلى غير ذلك مما ورد فيه ، وأما شهوة الفرج فأفعالها تنقسم إلى محمود ومكروه ومحظور ، أما المحمود فهو المقدار الذى لا بد منه لحفظ النوع فإن النكاح ضرورى لبقاء نوع الإنسان باتصال نسله كما أن الغذاء ضرورى لبقاء شخصه إلى حين أجله ، والشهوة خلقت باعثة على إبقاء النسل بطريق الوطء كما خلق الجوع باعثا على إبقاء الشخص بالأكل ، ولذلك قال (تناكحوا تناسلوا تكثروا فإنى مباه بكم الأمم) فمن كان قصده فى النكاح أمرين (أحدهما) النسل لكثرة المباهاة وأن يلحقه بعده ولد صالح يدعو له (والثانى) أن يدفع عن نفسه فضلة المنىّ التى إذا اجتمعت كانت كالمرة ، والدم إذا اجتمع عظمت نكايته فى البدن بإثارة المرض وفى الدين بالدعوة إلى الفجور . فالنكاح على هذا الوجه محمود وسنة وداخل تحت قوله (من أحب فطرتى فليستسن بسنتى) ومن نكح فقد حصن نصف دينه ولا بأس بغرض ثالث وهو أن يكون فى بيته من يدبر أمور منزله ليتفرغ هو للعلم والعبادة فيصير النكاح على هذ الوجه من جملة العبادات فإن الأعمال بالنيات ، وإمارة هذا أن لا يطلب من المراة إلا الجمال للتحصن وحسن الخلق لتدبير المنزل ، والديانة للصيانة والنسب الدينى فقط فإنه إمارة الديانة وحسن الخلق فإن العرق نزاع ولذلك قال عليه السلام

(عليك بذات الدين تربت يداك وإياكم وخضراء الدمن)وقال(تخيروا لنطفكم) وليطلب صحة البدن وأن لا يكون عقيما لأجل الولد فإنه المقصود ولذلك كره العذل وإتيان المرأة من ورائها فإنه إهمال للحراثة ونساؤكم حرث لكم ، ولا بأس بطلب الأبكار لتستحكم الألفة وقد ندب الشرع إليها ، وأما المكروه فأن يقصد التمتع وقضاء الشهوة فقط ، ثم يمعن فيه ويواظب عليه وربما يتناول ما يزيد فى شهوته وذلك مضر شرعاً ولا كراهية فيه فى نفسه فإنه مباح ولكنه انصراف عن الله إلى اتباع الهوى وتشبه بالثيران والحمر ، وإثارة الشهوة بالمطعومات القوية والأسباب الباعثة تضاهى إثارة سباع ضارية وبهائم عادية ثم الانتهاض بعدها للخلاص منها ، وأما المحظور فعلى وجهين (أحدهما) أن يقضى الشهوة فى محل الحرث ولكن بغير عقد شرعى ولا على الوجه المأمور وهو الزنا ، وقد قرن ذلك بالشرك حيث قال (الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة) (والثانى) تعاطيه فى غير محل الحرث وهو أفحش من الزنا لأن الزانى لم يضيع الماء بل وضعه فى محل الحرث على غير الوجه المأمور ، وهذا قد ضيع وكان ممن قال الله تعالى (ويهلك الحرث والنسل) ولذلك سميت اللواطة الاسراف فقال تعالى (إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون) فهذه مراتب الناس فى شهوة الفرج ، وقد ينتهى بعض الضلال إلى العشق وهو عين الحماقة وغاية الجهل بما وضع الجماع له ومجاوزة لحد البهائم فى تملك النفس وضبطها لها لأن المتعشق لم يقنع بارادة شهوة الجماع وهى أقبح الشهوات وأجدرها بأن يستحى منها حتى اعتقد أن لا تنقضى إلا فى محل واحد

والبهيمة تقضى الشهوة أنى اتفق فتكتفى به ، وهذا لا يكتفى إلا من
معشوقته حتى ازداد به ذلا إلى ذل وعبودية إلى عبودية ، واستسخر
العقل لخدمة الشهوة ، وقد خلق ليكون آمراً مطاعاً لاليكون خادماً
للشهوة محتالا لأجلها وهو مرض نفس فارغة لا همة لها ، وإنما يجب
الاحتراز من أوائلها وهو معاودة النظر والفكر وإلا فبعد الاستحكام
يعسر دفعها وكذلك عشق الجاه والمال والعقار والأولاد حتى حب
اللعب بالطيور والنرد والشطرنج فإن هذا الأمور تستولى على طائفة
ينقضى عليهم الدين والدنيا ولا يصبرون عنها ، ومثال رد الشهوة فى
أول انبعاثها صرف عنان الدابة عن توجهها إلى باب دار تدخله فما
أهون منعها وصرف غنانها ، ومثال علاجها بعد استحكامها أن تترك
الدابة حتى تدخل وتجاوز الباب ،ثم تأخذ بذنبها جاراً لها إلى وراء
وما أعظم التفاوت بين الأمرين فليكن الاحتياط فى بدايات الأمور ،
فأما أواخرها فلا تقبل الإصلاح فى الأكثر إلا بجهد شديد يرازى
نزع الروح ، وأما أفعال الغضب فتنقسم إلى محمود ومكروه ومحظور
أما المحمود ففى موضعين (أحدهما) المسمى غيرة وهو أن يقصد حريم
الرجل ويتعرض لمحارمه ، فالغضب له ولدفعه محمود وقلة التأثر به خنوثة
وركاكة — ولذلك قال عليه السلام (ان سعداً لغيور وان الله أغير
منه) وقد وضع الله الغيرة فى الرجال لحفظ الأنساب فإن النفوس
لو تسامحت بالتزاحم على النساء لاختلطت الأنساب ، ولذلك قيل كل
أمة وضعت الغيرة فى رجالها وضعت الصيانة فى نسائها (والثانى)
الغضب عند مشاهدة المنكرات والفواحش غيرة على الدين وطلبا

للانتقام ولذلك مدحوا بكونهم أشداء على الكفار رحماء بينهم — ولذلك قال عليه السلام (خير أمتى أحداؤها) فالمراد به الحدة لحية الدين ولذلك قال تعالى (ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله) ومع هذا فالسلطان إذا غضب عند جناية جان فينبغى أن يحبسه ولا يبادر إلى عقوبته حتى يجدد النظر فيه فإن الغضب غول العقل فربما يحمله على مجاوزة حد الواجب فى الانتقام وأما المكروه فغضبه عند فوات حظوظه المباحة نيلها كغضبه على خادمه وعبده عند كسر آنيته أو توانيه فى خدمته بحكم تغافل يمكن الاحتراز عنه ، فهذا لا ينتهى إلى حد المذموم ولكن العفو والتجاوز أولى وأحب ، ولذلك قيل لواحد حكيم لا تصفح عن عبدك وهو يقصر فى خدمتك فيفسد باحتمالك فقال لأن يفسد عبدى فى صلاح نفسى خير من أن تفسد نفسى فى صلاح عبدى فإن احتمال ذلك إصلاح للنفس والانتقام إصلاح للعبد ، وأما المذموم فهو الاستشاطة الصادرة عن الفخر والتكبر والمباهاة والمنافسة والحقد والحسد وعن أمور واهية تتعلق بالحظوظ البدنية من غير أن يكون فى الانتقام مصلحة فى المستقبل ديناً ودنيا وهو الغالب على أكثر الخلق وهو انقياد للخلق الذى يضاد الحلم والتحلم فإن الحلم عبارة عن إمساك النفس عن هيجان الغضب والتحلم عن إمساكها عن قضاء الوطر منه إذا هاج والكمال فى الحلم ولكن التحلم صبر على المكروه وفيه أيضا خير كثير فهذه مراتب أفعال الغضب ، والناس فى الغضب يختلفون فبعضهم كالحلفاء سريع التوقد سريع الخمود وبعضهم كالقطا بطىء التوقد بطىء الخمود وبعضهم بطىء التوقد سريع الخمود وهو الأحمد مالم ينته

إلى فور الحمية والغيرة ، وأسباب الغضب أما من جهة المزاج فالحرارة واليبوسة ، يدل عليهما تعريف الغضب فإن الغضب معناه غليان دم القلب فإن كان على من فوقك فى القدرة على الانتقام تولد منه انقباض الدم من ظاهر الجلد إلى القلب وكان حزنا ولأجله يصفر الوجه ، وإن كان على من دونك تولد منه ثوران دم القلب لا انقباضه فيكون منه الغضب الحقيقى وطلب الانتقام ؛ وإن كان على نظيرك فى القدرة على الانتقام تولد منه تردد الدم بين انقباض وانبساط ويختلف به لون الوجه فيحمر ويصفر ويضطرب ، وبالجملة قوة الغضب محلها القلب ومعناه حركة الدم وغليانه ، وأما ماوراء المزاج فالاعتياد فإن من يعاشر جماعة يباهون بالغضب والطباع السبعية انطبع ذلك فيه ، وأن من خالط أهل الشدة والوقار أثرت العادة أيضا فيه ، وأما سببه المخرج له من القوة إلى الفعل فى الحال فهو العجب والافتخار والمراء واللجاج والمزاح والتيه والاستهزاء والضيم وطلب ما فيه التنافس والتحاسد وشهوة الانتقام وكل ذلك مذموم ، وحق من اعتراه الغضب أن يتفكر فيما قاله بعض الحكماء لبعض السلاطين وقد سأله حيلة فى دفع الغضب ، فقال ينبغى أن تذكر أنه يجب أن تطيع لا أن تطاع فقط وأن تخدم لا أن تخدم فقط ، وأن تحتمل لا أن تحتمل فقط ، وأن تعلم أن الله يراك دائما . فإذا فعلت ذلك لم تغضب

(واعلم) أن الغضب له فروع كما سبق ومن جملتها الشجاعة والتهور والمنافسة والغبطة والحسد على ماسبق ولكن نزيدها شرحا . أما الشجاعة فخلق بين التهور والجبن فإن اعتبر إضافتها إلى النفس فهى

صرامة القلب فى الأهوال وربط الجأش عند المخاوف وإن اعتبر بالفعل فالإقدام على موضع الفرصة وتولدها من الغضب وحسن الأمل وبها يصابر الإنسان الشدائد بل بها يصبر عن المعاصى فإن الغضب إذا سلط على الشهوة زجرها ، ولما كان الدين شطره رغبة فى الخير وشطره تركا للشر قال عليه السلام (الصبر نصف الإيمان) ولما كان بعض الشرور فى شهوة الفرج والبطن وبعضها فى غيرهما قال : الصوم نصف الصبر والصبر صبران صبر جسمى وهو تحمل المشاق بالبدن إما فعلا كتعاطى الأعمال الشاقة وإما انفعالا كاحتمال الضرب الشديد والمرض العظيم ، والمحمود التام هو الضرب الثانى وهو الصبر النفسى ، فإن كان عن تناول المشتهيات سمى عفة ، وإن كان على احتمال مكروه اختلفت أسماؤه بحسب اختلاف المكروه ، فإن كان فى مصيبة اقتصر على اسم الصبر ويضاده الجزع والهلع وإن كان فى احتمال غنى سمى ضبط النفس ويضاده البطر ، وإن كان فى حرب سمى شجاعة ويضاده الجبن ، وإن كان فى كظم الغيظ والغضب سمى حلما ويضاده التذمر وإن كان فى نائبة مضجرة سمى سعة الصدر ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر ، وإن كان فى إخفاء كلام سمى كتم السر ، وإن كان على فضول العيش سمى زهدا وقناعة ويضاده الحرص والشره ولذلك قال تعالى (والصابرون فى البأساء) أى المصيبة (والضراء) أى الفقر (وحين البأس) أى المحاربة (أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) وأما الغبطة والمنافسة والحسد التى هى من جملة الفروع أيضا فالغبطة محمودة والحسد مذموم ، قال عليه السلام (المؤمن يغبط

والمنافق يحسد) والمنافسة محمودة قال تعالى (وفى ذلك فليتنافس المتنافسون) والغبطة تمنى الإنسان أن ينال كل ما ناله أمثاله من غير أن يغتم لنيل غيره فإذا انضم إليه الجد والتشمير فى الوصول إلى مثله أو خير منه فهو منافسة والحسد هو تمنى زوال النعمة عن مستحقيها وربما كان مع سعى فى إزالتها ، والخبيث الحسد من يكون ساعيا فى الإزالة من غير أن يطلبها لنفسه ، والحسد غاية البخل إذ البخيل يبخل بمال نفسه ، والحسود يبخل بمال الله على غيره ، وقيل الحسد والحرص هما ركنا الذنوب ولهما ضرب[1] المثل بآدم وإبليس إذ حسد إبليس آدم فصار لعينا ، وحرص آدم على مانهى عنه فأخرج من الجنة ، فهما شجران يثمران الهموم والغموم والخسران ، فمن قطع عروقهما نجا ، وبالجملة فالحسد عين الحماقة لأن من لا يغتم بخير يصل إلى أهل المغرب مع أنه لا يناله بوجه فلم يغتم بخير يصل إلى عشيرته وشركائه وجيرانه وأهل بلده ، وربما ينال منه حظا ، وقوله عليه السلام (لا حسد إلا فى اثنين رجل آتاه الله مالا فجعله فى حق ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضى بها) إنما أراد به الغبطة فإن الحسد قد يطلق لإرادتها — فهذا هو القول فى ضبط أفعال هذه الصفات، فإن قلت فمن ضبط أفعال هذه القوى حتى حدث فى نفسه من أفعاله أخلاق راسخة يتيسر بها هذه الأفعال فهل يكون عفيفا (فاعلم) أن العفة لا تتم بهذا القدر مالم ينضم إليه عفة اليد واللسان

---

(١) فى هذا التعبير سر غامض تعرفه أرباب العقول الحرة والأفكار العالية .

والسمع والبصر وحسدها فى اللسان الكف عن السخرية والغيبة والنميمة والكذب والهمز والتنابز بالألقاب . وفى السمع ترك الإصغاء إلى قبائح اللسان من الغيبة وغيرها وإلى استماع الأصوات المحرمة وكذلك فى جميع الجوارح والقوى ، وعماد عفة الجوارح كلها ألا يطلقها فى شىء مما يختص بها إلا فيما يسوغه العقل والشرع وعلى الحد الذى يسوغه ، ثم لا تتم بذلك مالم يكن قصده فى الإقدام والإحجام تحرى الفضيلة وطلب التقرب إلى الله عز وجل ونيل مرضاته ، فأما إن كان قصده بعفته انتظارا لما هو أكثر أو لأنه لا يوافق مزاجه أو لخمود شهوته أو لاستشعار خوف فى عاقبته كسقوط حشمته أو لأنه ممنوع من تناوله فكل ذلك ليس بعفة وإنما كل ذلك تجارة وترك حظ لحظ يماثله ، وكل ذلك غير كاف فى تحصيل العفة فليعلم ذلك ولنخض بعد ذلك فى تعريف التعليم والتعلم وتهذيب القوة العقلية .

(بيان شرف العقل والعلم والتعليم)

قد عرفت فيما سبق أن العلم والعمل هما وسيلتا السعادة وأن العمل لا يتصور إلا بعلم بكيفية العمل وأن العلم الذى ليس بعملى كالعلم بالله وصفاته وملائكته مقصود فقد استفدت منه أن العلم أصل الأصول فلا بد أن نرشدك الآن إلى طريق التعلم والتعليم ولننبه أولا على شرف هذه الأمور وندل عليه فنقول ، أما التعليم فهو أشرف الأعمال (والصناعات ثلاثة أقسام) إما أصول لاقوام للعالم دونها

وهى أربعة الزراعة والحياكة والبناية والسياسة[١] وإما مهيئة لكل واحدة منها وخادمة لها كالحدادة للزراعة ، والحلاجة والغزل للحياكة وإما متممة لكل واحدة من ذلك ومزينة لها كالطحانة والخبز للزراعة والقصارة والخياطة للحياكة ، وذلك بالإضافة إلى قوام العالم الأرض مثل أجزاء الشخص بالإضافة إليه فإنها ثلاثة أضرب ، إما أصول كالقلب والكبد والدماغ ، وإما مرشحة لتلك الأصول وخادمة لها كالمعدة والعروق والشرايين وإما مكملة ومزينة لها كالهدب والحاجب وأشرف أصول الصناعات السياسات إذ لا قوام للعالم إلا بها وهى أربعة أضرب (الأول) سياسة الأنبياء وحكمهم على الخاصة والعامة فى ظاهرهم وباطنهم (والثانى) الخلفاء والولاة والسلاطين وحكمهم على الخاصة والعامة جميعا لكن على ظاهرهم لا على باطنهم (والثالث) العلماء والحكماء وحكمهم على باطن الخواص فقط (والرابع) الوعاظ والفقهاء وحكمهم على باطن العامة فقط فأشرف هذه السياسات الأربع بعد النبوة إفادة العلم وتهذيب نفوس الناس ، وبرهان ذلك أن شرف الصناعة إنما يكون باعتبار النسبة إلى القوة المبرزة الظاهرة لها كفضل معرفة الحكمة على معرفة اللغات فإن الأولى متعلقة بالقوة العقلية التى هى أشرف القوى ، والأخرى متعلقة بالقوة الحسية وهى السمع وإما بحسب عموم النفع كفضل الزراعة على الصياغة وإما بحسب شرف الموضوع المعمول فيه كفضل الصياغة على الدباغة وليس يخفى أن العلوم العقلية تدرك بالعقل الذى هو

---

(١) الزراعة للقوت والحياكة للباس والبناية للسكن والسياسة للأمن .

أشرف القوى وبه يتوصل إلى جنة المأوى وهو أبلغ نفع وأعمه وموضوعه الذى يعمل فيه نفوس البشر وهى أفضل موضوع بل أشرف موجود فى هذا العالم، فافادة العلم من وجه صناعة ومن وجه عبادة الله تعالى ومن وجه خلافة الله هو أجل خلافة فإن الله تعالى قد فتح على قلب العالم العلم الذى هو أخص صفاته فهو كالخازن لأنفس خزائنه، ثم هو مأذون له فى الإنفاق على كل محتاج إليه فأى رتبة أجل من كون العبد واسطة بين ربه وخلقه فى تقربهم إلى الله زلفى وسياقتهم إلى جنة المأوى ، واما شرف العلم والعقل فمدرك بضرورة العقل والشرع والحس . أما الشرع فقد قال عليه السلام (أول ما خلق الله العقل فقال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر ثم قال وعزتى وجلالى ماخلقت خلقا أكرم علىّ منك بك آخذ وبك أعطى وبك أثيب وبك أعاقب) وهذا العقل الذى يدرك به الإنسان الأشياء تجرى من العقل الأول الذى خلق الله عز وجل مجرى النور من الشمس فإن هذه العقول عقول بالإضافة إلى الأشخاص وذلك [١] مطلق من غير إضافة ، وأما دلالة العقل على شرف العقل فهو أن مالا ينال سعادة الدنيا والآخرة إلا به فكيف لايكون أشرف الأشياء وبالعقل صار الإنسان خليفة الله وبه تقرب إليه وبه تم دينه [٢] ولذلك قال عليه السلام (لا دين

---

(١) فان العقل الأول نور صرف فياض على الكل فهو روح الكل وقد يسمى عند العرفاء بقلب العالم الأكبر انتهى .

(٢) قال تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم) أى يبعثة الرسول وشرعته تم دين الله تعالى .

لمن لا عقل له) وقال (لا يعجبكم إسلام امرىء حتى تعرفوا عقله) ولهذا قيل من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه كان حتفه فى أغلب خصال الخير عليه وناهيك به شرفاً أن قد شبه الله سبحانه العقل بالنور فقال (الله نور السموات والأرض) أى منورهما [١] وأكثر مايطلق النور والظلمات فى القرآن على العلم والجهل مثل قوله تعالى (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور) وإنما كل ذلك بالعقل — ولذلك قال عليه السلام لعلى رضى الله عنه (إذا تقرب الناس لخالقهم بأبواب البر فتقرب أنت بعقلك تتنعم بالدرجات والزلفى عند الناس فى الدنيا وعند الله فى الآخرة) وسنذكر وجه التقرب بالعقل وأما الحس بمجرده فكاف فى إدراك شرف العقل والعلم حتى ان أكبر الحيوانات شخصاً وأقواها بدناً إذا رأى الإنسان احتشمه بعض الاحتشام واستشعر الخوف منه لا حساسه بأنه مستول عليه بحيلته ، وأقرب الناس إلى البهائم أجلاف العرب والترك ، ورعاة البهائم منهم ولو وقع فيما بينهم راع أوفر منهم عقلا وأكثر منهم دراية بصناعتهم لو قروه طبعا ولذلك ترى الأتراك بالطبع يبالغون فى توقير شيوخهم لأن التجربة ميزتهم عنهم بمزيد علم ولذلك قال عليه السلام مطلقا (الشيخ فى قومه كالنبي فى أمته) وإنما وقار النبي فى أمته بحلمه وعقله لا بقوة شخصه وجمال بدنه وكثرة ماله وقوة شوكته ولذلك قصد كثير من

---

(١) إذ به يتنور وينكشف أسرار ملكوت السموات والأرض ومعنى كون الله منورا أنه خالق لذلك النور الوضاح .

المعاندين قتل رسول الله عليه السلام فلما وقع طرفهم عليه هابوه وتراءى لهم نور الله فى وجهه معربا عن تميزه ملقيا للرعب فى صدور معانديه، وقد سمى الله عز وجل العلم روحا فقال (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا) وسماه حياة فقال تعالى (أومن كان ميتا فأحييناه) وقال عليه السلام (ما خلق الله خلقا أكرم من العقل) ولو جلبت الأخبار الواردة فى الحث على طلب العلم لطال المقال وأى تشريف يزيد على قوله (ان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاء بما يصنع) .

(بيان وجوب التعلم لاظهار شرف العقل)

اعلم أن شرف العقل من حيث كونه مظنة العلم والحكمة وآلة له ، ولكن نفس الإنسان معدن للعلم والحكمة ومنبع لها وهى مركوزة فيها بالقوة فى أول الفطرة لا بالفعل كالنار فى الحجر والماء فى الأرض والنخل فى النواة ، ولا بد من سعى فى إبرازه بالفعل كما لا بد من سعى فى حفر الآبار لخروج الماء ، ولكن كما أن من الماء ما يجرى من غير فعل بشرى ومنه ما هو كامن محتاج فى استنباطه إلى حفر وتعب ، ومنه ما يحتاج فيه إلى تعب قليل كذلك العلم فى النفوس البشرية منه ما يخرج إلى الفعل من القوة بغير تعلم بشرى كحال الأنبياء عليهم السلام فإن علومهم تظهر من جهة الملأ الأعلى من غير واسطة بشرى، ومنه ما يطول الجهد فيه كأحوال العامة من الناس لاسيما ذوو البلادة الذين كبر سنهم فى الغفلة والجهل ولم يتعلموا زمن الصبا ، ومنه ما يكفى فيه السعى القليل كحال الأذكياء من الصبيان ولكون العلوم مركوزة

فى النفوس قال الله تعالى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى) فالمراد بإقرار نفوسهم المعنى الذى أشرنا إليه من كونها موجودة بالقوة دون إقرار الألسنة فإنها لم تحصل من كلهم عند الظهور بل من بعضهم — وكذلك قوله تعالى (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) معناه لئن اعتبرت أحوالهم شهدت نفوسهم وبواطنهم بذلك (فطرة الله التى فطر الناس عليها) فكل آدمى فطر على الإيمان وماجاء الأنبياء إلا بالتوحيد ولذلك قال قولوا (لا إله إلا الله) فإنه لن يصادف إلا من هو مصدق بالإله وإنما غلط فى عينه أو صفته ، ثم لما كان الإيمان بالله مركوزاً فى النفوس بالفطرة انقسم الناس إلى من أعرض فنسى وهم الكفار ، وإلى من أجال خاطره فتذكر وكان كمن حمل شهادة فنسيها بغفلة ثم تذكرها — ولذلك قال تعالى (لعلهم يتذكرون) (وليذكر أولو الألباب) (واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به) (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) والتذكر هو أكثر ما يعبر به وتسمية هذا النمط تذكراً ليس يبعيد ، وكان التذكر ضربان (أحدهما) أن يتذكر صورة كانت مكتسبة فى قلبه بالعقل ثم غابت عنه (والآخر) أن يكون تذكره لصورة مضمنة بالفطرة فى الإنسان ، ولذلك قال المحققون التعلم ليس يجلب للإنسان شيئاً من خارج بل يكشف الغطاء عما حصل فى النفوس بالفطرة كحال مظهر الماء من الأرض ومظهر الصور فى المرآة بالجلاء — وهذه حقائق ظاهرة للناظرين بعين العقل ثقيلة على من جمد به قصوره

على أول رتبة صبيان المكتب فى اعتلاق طبعهم بسوابق الخيالات من ظواهر الألفاظ من غير تحقيق لها .

(بيان أنواع العقل)

اعلم أن العقل ينقسم إلى غريزى وإلى مكتسب فالغريزى هو هو القوة المستعدة لقبول العلم ، ووجوده فى الطفل كوجود النخل فى النواة ، والمكتسب المستفاد هو الذى يحصل من العلوم إما من حيث لا يدرى كفيضان العلوم الضرورية عليه بعد التمييز من غير تعلم ، وإما من حيث يعلم مدركه وهو التعلم ولانقسام العقل إلى قسمين قال على رضى الله تعالى عنه :

(رأيت العقل عقلين ... فمطبوع ومسموع)
(ولا ينفع مسموع ... إذا لم يك مطبوع)
(كما لا تنفع الشمس ... وضوء العين ممنوع)

(والأول) هو المراد بقوله ماخلق الله خلقا أكرم عليه من العقل (والثانى) هو المراد بقوله عليه السلام لعلى (إذا تقرب الناس بأبواب البر فتقرب أنت بعقلك) (والأول) يجرى مجرى البصر للجسم (والثانى) يجرى مجرى نور الشمس ولا منفعة فى النور عند عمى البصر ولايجدى البصر عند عدم النور فكذلك بصر الباطن وهو العقل وهو أشرف من البصر الظاهر إذ النفس كالفارس والبدن كالفرس وعمى الفارس أضر من عمى الفرس ولمشابهة بصره الباطن الظاهر قال

تعالى (ما كذب الفؤاد ما رأى) وقال وكذلك (نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض) وسمى ضده عمى قال تعالى (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) وقال (ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا) وبالجملة من لم يكن بصيرة عقلة نافذة فلا تعلق به من الدين إلا قشوره بل خيالاته وأمثلته دون لبابه وحقيقته فلا تدرك العلوم الشرعية إلا بالعلوم العقلية فإن العقلية كالأدوية للصحة والشرعية كالغذاء والنقل جاء من العقل وليس لك أن تعكس ، والنفس المريضة المحرومة من الدواء تتضرر[١] بالأغذية ولا تنتفع ولذلك قال تعالى (فى قلوبهم مرض) لما كانوا لا ينتفعون بالقرآن ، والمقلد الأعمى إذا تأمل أمور مواد الشرع يتراءى له أمور متناقضة وهى كذلك بالإضافة إلى مافهمه ، ثم قد تجبن نفسه عن التأمل فيه لضعف عقله وخور طبعه فيتكاف الغفلة عنه خيفة أن ينكسر تقليده . وقد يتأمله فيدرك تناقضه فيتحير ويبطل يقينه ولو نظر بعين البصيرة لبطل التناقض ورأى كل شىء فى موضعه ومثاله مثال الأعمى الذى دخل داراً فعثر بالكوز والطشت وأثاث الدار فقال لم وضعتم هذا على الطريق لم لا تردونها إلى محلها ، فقيل له إن كلا فى موضعه ولكن الخلل فى البصر ، فهذا بيان نسبة العلم المستفاد من العقل

---

(١) قال تعالى يضل به كثيراً ويهدى به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين (أى الخارجين عن الفطرة الأصلية والسلامة القلبية) .

(واعلم) أن المكتسب من العلوم بواسطة العقل ينقسم إلى المعارف الدنيوية والأخروية . وطريقاهما متنافيان فمن صرف عنايته إلى أحدهما قصرت بصيرته فى الآخر على الأكثر - ولذلك ضرب على رضى الله عنه ثلاثة أمثلة ، فقال : إن مثل الدنيا والآخرة ككفتى ميزان وكالمشرق والمغرب وكالضرتين إذا أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى - ولذلك نرى الأكياس فى أمور الدنيا جهالا فى أمور الآخرة وبالعكس ، ولذلك قال عليه السلام (الكيس من دان نفسه وعمل لمابعد الموت) ، وقال لمن نسب بعض الصالحين إلى البله (أكثر أهل الجنة البله) يعنى فى أمور الدنيا — ولذلك قال الحسن البصرى أدركنا أقواما لو رأيتموهم لقلتم مجانين ولو رأوكم لقالوا شياطين ، ومهما سمعت أمراً غريباً من أمور الدين فلا يبعدنك عن قبوله إنه لو كان حقيقياً لأدركه الاكياس من أرباب الدنيا ودقائق الصناعات الهندسية وغيرها إذ من المحال أن يظفر سالك طريق المشرق بما يوجد فى المغرب — فكذلك أمر الدنيا والآخرة — ولذلك قال تعالى (إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها) الآيتين وقوله تعالى (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة غافلون) ولا يكاد يجمع بينهما إلا من رشحه الله لتدبير الخلق فى معاشهم ومعادهم وهم الأنبياء المؤيدون بروح القدس المستمدون من قوة تتسع لجميع الأمور ولا تضيع فأما النفوس الضعيفة إذا شغلت بأمر انصرفت عن غيره ولن تقدر على الاستكمال منهما جميعاً .

(بيان وظائف المتعلم والمعلم فى العلوم المسعدة)

أما المتعلم فوظائفه كثيرة وتجمع تفاصيلها عشر جمل ، (الوظيفة الأولى) أن يقدم طهارة النفس عن رديء الأخلاق فكما لا تصح عبادة الجوارح فى الصلاة إلا بطهارة الجوارح والعلم عبادة النفس وفى لسان الشرع عبادة القلب[1] فلا يصح إلا بطهارة القلب عن خبائث الأخلاق وأنجاس الصفات قال عليه السلام (بنى الدين على النظافة) وهو كذلك باطنا كما إنه كذلك ظاهراً وقال تعالى (إنما المشركون نجس) فنبه به على أن الطهارة والنجاسة غير مقصورتين على الظاهر ـ ولذلك قال عليه السلام (لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب) والقلب منزل الملائكة ومحل نظارهم ومهبط أثرهم ، والصفات الردية كلاب مانعة ، ومهما اعتقد فى بيت من طين وحيوان سمى كلباً وهو كسائر الحيوانات شكلا فبأن يعتقد فى بيت الدين وصفات لا تساوى سائر الصفات المحمودة أولى ، وبيت الدين هو القلب وعليه تغلب الكلاب مرة والملائكة أخرى فإن قلت فكم طالب رديء الأخلاق حصل العلوم فما أبعدك عن فهم العلم الحقيقى الدينى الجالب للسعادة فما يحصله صاحب الأخلاق الردية حديث ينظمه بلسانه مرة وبقلبه أخرى وكلام يردده ، ولو ظهر نور العلم على قلبه لحسنت أخلاقه فإن أقل درجات العلم

---

(١) لما كان العالم نوعين أعلى وأسفل ـ أمرى وخلقى وفى لسان بعض العرفاء تدوينى [illegible] تكوينى الدوين لأنه ظله خص اسمى [illegible] القلب بالحقيقة [illegible] والنفس بالخليقة الانسانية التكوينية فتدبر .

أن يعرف أن المعاصى سموم مهلكة مبطلة للحياة الأبدية فإن منشأها الصفات الردية ، وهل رأيت من عرف السم فتناوله ، ولهذا قال عليه السلام (من ازداد علما ولم يزدد هدى لم يزدد من الله إلا بعداً) ولهذا قال بعض المحققين معنى قولهم تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا لله أى العلم امتنع وأبى أن يحصل وما حصل كان حديثا ولم يكن علما تحقيقياً ، فإن قلت إنى أرى جماعة من فضلاء الفقهاء قد تبحروا فيها مع سوء أخلاقهم ، فيقال لك إذا عرفت مراتب العلوم ونسبتها إلى سلوك سبيل السعادة عرفت أن ما يعرفه أولئك الفقهاء قليل الغناء فى المقصود وإن كان لا ينفك عن تعلق به فى حق من يقصد به التقرب (الوظيفة الثانية) أن يقلل علائقه من الأشغال الدنيوية ويبعد عن الأهل والولد والوطن فإن العلائق صارفة وشاغلة للقلوب (وما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه) وكلما توزعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق ، ولهذا قيل العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك فإذا أعطيته كلك فإنك من إعطائه إياك بعضه على خطر والفكرة مهما توزعت على أمور كانت كجدول ماؤه منكشف منبسط فينشفه الهوى والأرض ولا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ المزرعة وينتفع به (الوظيفة الثالثة) أن لا يتكبر على العلم وأهله ولا يتأمر على المعلم بل يلقى إليه بزمام أمره فى تفصيل طريق التعلم ويذعن لنصحه إذعان المريض للطبيب ، أما التكبر على العلم فأن يستنكف من استفادته ممن يعرفه وهو عين الحمق بل الحكمة ضالة كل حكيم فحيث يجدها ينبغى أن يغتنمها ويستفيدها ويتقلد بها المنة .

(فالعلم حرب للفتى المتعالى * كالسيل حرب للمكان العالى)

فلا بد من التواضع ولذلك قال تعالى (إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) أى يكون مشتغلا بالعلم وهو المراد بمن له قلب أو كان فيه من العقل مايحمله على إلقاء السمع وحسن الإصغاء والضراعة، ومهما لم يكن المتعلم لمعلمه كأرض جدبة نالت مطراً غزيراً فيلقاه بالقبول من غير دفع لم ينتفع به، ومهما أشار المعلم فى طريق التعلم بمايراه المتعلم عين الخطأ ويعتقده قطعا فليتهم نفسه وليصبر وليتبع معلمه فإن خطأ معلمه خير من صواب نفسه كسالك الطريق يكون قد استفاد بالتجربة مايتعجب المبتدئ منه، وعلى هذا نبه الله تعالى فى قصة الخضر وموسى فإنه قال (هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشداً) إلى قوله (فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا) ثم لم يصبر وراجعه وراده إلى أن قال (هذا فراق بينى وبينك)، ثم نبه على أسرار مااستبعده كما ورد به القرآن فعرف الله موسى أن المعلم يعلم ما لا ينتهى إليه عقل المتعلم ووهمه، وبالجملة فكل متعلم لم يتبع مراسم معلمه فى طريق التعلم فاحكم عليه بالإخفاق وقلة النجح، فإن قلت فقد قال الله تعالى (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) فاعلم أن هذا ليس مناقضة لمنع موسى من السؤال ولا لما ذكرناه لأن النهى هو منع عن طلب مالم يبلغ إلى حد يدركه فإذا منعه المعلم من السؤال عنه فليمتنع والأمر هو حث على معرفة تفصيل ماتقتضيه رتبته من العلم (الوظيفة الرابعة) أن الخائض فى العلوم النظرية لا ينبغى أن يصغى أولا إلى الاختلاف

الواقع بين الفرق والشبه المشككة المحيرة ما لم يكن بعد تمهيد قوانينه فإن ذلك يفتر عزمه فى أصل العلم ويؤيسه عن حقيقة الدرك لأسباب ذكرناها فى كتاب معيار العلم فليتقن الأصول والرأى الذى اختاره أستاذه وطريقه ، ثم ليخض بعد ذلك فى تعريف الشبه وتعقبها — ولهذا نهى الله تعالى من لم يقو فى الإسلام عن مخالطة الكفار حتى قيل كان أحد أسباب تحريم الخنزير ذلك إذ كان أكثر أطعمة الكفار فحرم ذلك ليكون مزجرة للمسلمين عن مواكلتهم التى كانت سببا للمخالطة ولهذا يجب صيانة العوام عن مجالس أهل الأهواء كما يصان الحرم عن مخالطة المفسدين ، فأما من قويت فى الدين شكيمته واستقر فى نفسه برهانه وحجته فلا بأس عليه بالمخالطة بل الأحب المخالطة والإصغاء إلى الشبه والاشتغال بحلها ويكون به مجاهدآ فإن القادر يستحب له التهجم على صف الكفار والعاجز يكره له ذلك ، ومن هذا الأصل غلط من ظن أن وظائف الضعفاء كوظائف الأقوياء فى الدين حتى قال بعض مشايخ الصوفية من رآنى فى الابتداء قال صديقا ، ومن رآنى فى الانتهاء قال زنديقا ، يعنى أن الابتداء يقتضى المجاهدة الظاهرة للأعين بكثرة العبادات وفى الانتهاء يرجع العمل إلى الباطن فيبقى القلب على الدوام فى عين الشهود والحضور وتسكن ظواهر الأعضاء فيظن أن ذلك تهاون بالعبادات وهيهات — فذلك استغراق لمخ العبادات ولبابها وغايتها ولكن أعين الخفافيش تكل عن درك نور الشمس (الوظيفة الخامسة) للمتعلم أن لا يدع [illegible] نوعا من أنواعه إلا وينظر فيه نظرآ يطلع به على غايته ومقصده وطريقه ، ثم إن ساعده العمر وأتته

الأسباب طلب التبحر فيه فإن العلوم كلها متعاونة مترابطة بعضها ببعض ويستفيد منه فى الحال حتى لا يكون معاديا لذلك العلم بسبب جهله به فإن الناس أعداء ماجهلوا قال تعالى (وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم) قال الشاعر :

ومن يك ذا فم مر مريض   يجد مراً به الماء الزلالا

فلا ينبغى أن يستهين بشىء من أنواع العلوم بل ينبغى أن يحصل كل علم ويعطيه حقه ومرتبته فإن العلوم على درجاتها إما سالكة بالعبد إلى الله أو معينة على أسباب السلوك ، ولها منازل مرتبة فى القرب والبعد من المقصد ، والقوام بها حفظة كحفظة الرباطات والثغور على طريق الجهاد والحج ولكل واحد منها رتبه (الوظيفة السادسة) أن لا يخوض فى فنون العلم دفعة بل يراعى الترتيب فيبدأ بالأهم فالأهم ولا يخوض فى فن حتى يستوفى الفن الذى قبله فإن العلوم مرتبة ترتيبا ضروريا وبعضها طريق إلى البعض ، والموفق مراعى ذلك الترتيب والتدريج قال تعالى (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته) أى لا يجاوزون فنا حتى يحكموه علما وعملا وليكن قصده من كل علم يتحراه الترقى إلى ما فوقه ، وينبغى أن لا تحكم على علم بالفساد لوقوع الاختلاف بين أصحابه فيه ولا بخطأ واحد أو آحاد فيه ولا بمخالفتهم موجب العلم بالعمل فيرى جماعة تركوا النظر فى العقليات والفقهيات متعللين فيها بأنه لو كان لها أصل لأدركها أربابها ، وقد مضى كشف هذه الشبهة فى كتابنا معيار العلم ويرى قوم يعتقدون صحة النجوم لصواب اتفق لواحد ، وطائفة يعتقدون بطلانه لخطأ اتفق لواحد والكل

خطأ بل ينبغى أن يعرف الشىء فى نفسه فلا كل علم يستقل به كل شخص ، ولذلك قال على رضى الله تعالى عنه لا تعرف الحق بالرجال اعرف الحق تعرف أهله (الوظيفة السابعة) إن العمر إذا لم يتسع لجميع العلوم فينبغى أن يأخذ من كل شىء أحسنه فيكتفى بشمة من كل علم ويصرف الميسور من العمر إلى العلم الذى هو سبب النجاة والسعادة وهو غاية جميع العلوم وهى معرفة الله (١) على الحقيقة والصدق ، فالعلوم كلها خدم لهذا العلم وهذا العلم حر لا يخدم غيره ، ولهذا قال تعالى (قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون) وليس المراد تحريك عضلات اللسان بهذه الحروف ولذا قال (من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة) فإن حركة الأطراف قليل الغناء إذا لم يكن مؤثراً فى القلب أو لم يكن صادراً عن أثر راسخ فى القلب أو له اعتقاد يسمى إيمانا ، ثم ينتهى ترتيبه إلى مثل إيمان أبى بكر الذى لو وزن بإيمان العالمين لرجح هذا مع التصريح بأنه مافضلكم بكثرة صيام وصلاة ولكن بسر وقر فى قلبه ، فإن كان منتهى العلم بالله اعتقاد ما اعتقده المقلد المتكلم المتعلم بتحرير الدليل فما عندى أن هذا يعجز عنه عمر وعثمان وكافة الصحابة حتى كان قد فضلهم أبو بكر به — وبهذا يستبين للمنصف أن طريق الصوفية وإن كان يرى مائلا عن أكثر الظواهر

---

(١) وهى لا تنال إلا بأمرين حرية العقل النظرى المحررة له من رق التقليد والوهم — وحرية العقل العملى المحررة له من عبودية الجسم فإذا تم له هاتان الحريتان يصل إلى مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

فشهود له من الشرع بشواهد قوية فلا ينبغى أن يعاديها الجاهل لجهله وقصوره عنها ، وعلى الجملة فمعرفة الله غاية كل معرفة وثمرة كل علم على المذاهب كلها ، وقد روى أنه رؤى صور تاحكيمين من الحكماء المتعبدين فى مسجد وفى يد أحدهما رقعة فيها (إن أحسنت كل شيء فلا تظنن أنك أحسنت شيئا حتى تعرف الله تعالى وتعلم أنه مسبب الأسباب وموجد الأشياء) وفى يد الآخر (كنت قبل أن عرفت الله أشرب وأظمأ حتى إذا عرفته رويت بلا شرب)(الوظيفة الثامنة) أن تعرف معنى كون بعض العلوم أشرف من بعض فإن شرف العلم يدرك بشيئين (أحدهما) بشرف ثمرته والآخر بوثاقة دلالته وذلك كعلم الدين وعلم الطب فإن ثمرة علم الدين الحياة الأبدية التى لا آخر لها فكان أشرف من علم الطب الذى ثمرته حياة البدن إلى غاية الموت ، وأما الحساب إذا أضفته إلى الطب فالحساب أشرف باعتبار وثاقة دلالته فإن العلوم بها ضرورية غير متوقفة على التجربة بخلاف الطب ، والطب أشرف باعتبار ثمرته فإن صحة البدن أشرف من معرفة كمية المقادير ، والنظر إلى شرف الثمرة أولى من النظر إلى وثاقة الدليل ، وأشرف العلوم ثمرة العلم بالله وملائكته وكتبه ورسله وما يعين عليه فإن ثمرته السعادة الأبدية (الوظيفة التاسعة) أن تعرف أنواع العلوم بقول جلى وهى ثلاثة ، علم يتعلق باللفظ من حيث يدل على المعنى ، وعلم يتعلق بالمعنى المجرد ، أما المتعلق باللفظ فهو ما عرف به المعانى بالحس وأريد أن تعرف الألفاظ الموضوعة بالاصطلاح للدلالة عليها

وهى قسمان (أحدهما) علم اللغات والآخر لواحقها كعلم الاشتقاق والإعراب والنحو والتصريف وعلم العروض والقوافى، وقد ينتهى العلم بمخارج الحروف وما يتعلق به، وأما المتعلق بالمعنى من حيث يدل باللفظ عليه فعلم الجدل والمناظرة والبرهان والخطابة فإن الناظر فى هذه العلوم عالم باللغة وموجب الألفاظ وعالم بالمعانى وعالم بترتيب إيرادها وكيفية نظمها على وجه يؤدى إلى تحصيل العلم اليقينى فيكون برهانا أو إلى إفحام الخصم فيكون جدلا أو إلى إقناع النفس الإقناع الذى يبتغى للاستدراج والمحالة فيسمى خطابة ووعظا ويسمى أيضاً دليلا فإنها تدل المخاطبين على المقاصد وتسوقهم إلى اعتقاداتهم التى فيها نجاتهم وعليه أكثر دلالات الأخبار (١) والقرائن المستدل بها على الكفار وهو أكثر أنواع الأدلة نفعا وأعمها فى حق الجماهير جدوى، فأما البرهان الحقيقى اليقينى فلا يستقل بفهمه ودركه إلا أكابر العلماء المحققين الذين لا تسمح الأعصار بآحادهم، وأما الجدل فأقل الأقسام فائدة فى الإرشاد إذ المحقق لا يقنع بما يبنى دلالته على تسليم الخصم وليس مسلما فى نفسه، والعامى لا يفهمه بل يكل فهمه عن دركه والمشاغب المناظر فى أكثر الأمر إذا أفحم استمر على اعتقاده وأحال بالقصور على نفسه وقال لو كان صاحب مذهبى حيا وحاضراً لقدر على الانفصال عنه، وأكثر ماذكره المتكلمون فى مناظراتهم مع الفرق جدليات —

---

(١) يعنى عند إجرائها على الظواهر المتبادرة منها وهى المفاهيم الجمهورية وإلا فالتغلغل فى حقائقها يهدى إلى دقائق العلوم البرهانية اليقينية انتهى. مصححه.

وهكذا ما يجرى في مناظرات الفقه — ولذلك لا تنكشف مناظرة عن تنبه متنبه برجوعه عن مذهبه إلى غيره ، وأما القسم الثالث المتعلق بالمعنى فضربان علمى مجرد وعملى . أما العلمى فمعرفة الله تعالى ومعرفة الملائكة والأنبياء أى معرفة النبوة ومراتبها ومراتب الملائكة وملكوت السموات والأرض وآيات الآفاق والأنفس وما بث فيها من دابة ، ومعرفة الكواكب السماوية والآثار العلوية ، ومعرفة أقسام الموجودات كلها ، وكيفية ترتب البعض منها على البعض وكيفية ارتباط البعض منها بالبعض وكيفية ارتباطها بالأول الحق المقدس عن الارتباط بغيره ومعرفة القيامة والحشر والنشر والجنة والنار والصراط والميزان ومعرفة الجن والشياطين وتحقق أن ماسبق إلى الافهام العامية من ظاهر هذه الألفاظ حتى تخيلوا منها فى الله تعالى أموراً من كونه على العرش وفوق العالم بالمكان وقبله بالزمان وما اعتقدوه فى الملائكة والشياطين وفى أحوال الآخرة من الجنة والنار هل هى كما اعتقدوه من غير تفاوت أو هى أمثلة وخيالات ولها معان سوى المفهوم من ظاهرها ، فتحقق هذه الأمور بالصدق والحقيقة الصافية عن الشك ورجم الظنون المنفكة عن المرية والتخمين هى العلوم النظرية المجردة عن العمل . وأما العملى فهى الأحكام الشرعية والعلوم الفقهية والسنن النبوية وذلك معرفة سياسة النفس مع الأخلاق كما مضى ومعرفة تدبير أهل البيت والولد والمطعم والملبس وكيفية المعيشة والمعاملة ، وهذا علم الفقه ويشتمل على ربع المعاملات والنكاح والعقوبات ، ثم إذا عرف أنواعها فينبغى أن يعرف مراتبها كيلا يضيع

العمر إلا فى المقصود أو فيما يقرب منه ، وأما المقتنع بالقسم الأول المتعلق باللفظ فمختصر على القشر المحض ، والقانع منه بالنحو والاعراب والعروض ومخارج الحروف فقانع أيضا من القشرة بأوجهها ، وأما الخائض فى تعرف الطريق الذى به يتميز الدليل الحقيقى عن الاقناع فمشتغل بأمر مهم فإن اقتصر عليه فهو مقتصر على الآلة والوسيلة كمن يقصد الحج فيشترى الجمل ويعد الزاد والراحلة ويقعد فى بيته فذلك مهم وضرورى لكونه آلة ضرورية ولكن إذا لم يستعمل فى المقصد لا فائدة له فلا خير فى مجرد السلاح إذا لم يستعمل فى القتال . وأما الخائض فى العلوم العملية المقتصر عليها أعنى الفقهيات وتفصيلها فحاله أقرب من حال المقتصر على اللغات فهو بالاضافة إليه عظيم القدر كما أن العلم باللغات أيضا بالإضافة إلى العلم بالرقص والزّمر عظيم ولكن إن أضيف إلى جانب المقصود فهو فى غاية البعد ولا يتشكل ذلك إلا بمثال ، فإذا علق السيد عتق عبده على أن يحج ووعده بعد ذلك بما ينال به الرئاسة فله ثلاث مقامات فى الوصول إلى سعادة العتق وما بعده (الأول) تهيئة الأسباب بشراء الناقة وخرز الراوية وإعداد الزاد (والآخر) السلوك لمفارقة الوطن والتوجه إلى المقصد منزلا بعد منزل (الثالث) الاشتغال بالحج ركنا فركنا ثم العتق معه مع التعرض لاستحقاق المال الموصل إلى السعادة وله فى كل مقام منازل من أول أعداد الأسباب إلى آخره ومن أول سلوك الطريق إلى آخره ، وليس قرب من ابتدأ بأركان الحج من السعادة كقرب من ابتدأ بالاستعداد ولا كقرب من

ابتدأ بالسلوك ، فوزان الحج مما نحن فيه كمال النفس بطهارة الأخلاق
قطع الرذائل كلها وكمالها مع ذلك بانكشاف الحقائق لها ، ومثال المال
الموصل إلى الرئاسة هاهنا الموت الذى يكشف الحجاب الحائل بينه وبين
رتبة مشاهدة نفسه وكمالها وجمالها ليرى نفسه من الكمال فى أعلى عليين فيفرح
به ويسر سروراً مؤبداً ، ومثال سلوك منازل الطريق منزلا بعد منزل
سلوك مهذب الأخلاق فى محو الأخلاق الرديئة عن نفسه خلقا بعد
خلق وطالب العلوم النظرية التى ذكرناها دون سائر العلوم علما بعد علم ،
ومثال الاستعداد بخرز الراوية وشراء الزاد والناقة سائر العلوم الخادمة
للعلوم النظرية من الفقهيات واللغويات ، فالمتعلم للفقه كالخارز للراوية
والمقتصر عليه كالمقتصر على الراوية ، والمقتصر على اللغة كالمقتصر
على دباغة الجلد الذى يتخذ منه الراوية مثلا فإن الحاج لا يستغنى
عن الدباغ ومستغرق أوقاته بمعرفة تفريعات الفقه على ما يشتمل عليه
الخلافيات فى هذا العصر مما لم يعهد فى عصر الصحابة كمستغرق أوقاته
فى أحكام الراوية بعد سلوك الخيوط التى تخرزها وتحسن الخرز ، فإن
قلت فهذا إن قلته عن اعتقاد فهو خلاف إجماع الفقهاء وإن قلته حكاية
فمن المعتقد لهذا المذهب، فأقول لست أقوله إلا حكاية عن هذا المذهب
الذى مدار أكثر هذا الكتاب على وضعه وهو مذهب التصوف ، وقد
اتفقوا على المعنى الذى يفهمه هذا المثال وإن لم يكن هذا المثال بعينه
من جهتهم ، فإن قلت فهل ماقالوه حق أم لا ، فأقول ليس هذا الكتاب
لبيان الحق والباطل بالبرهان فى هذه الأمور بل هى وصايا تنبه على الغفلة

وترشد إلى مواضع الطلب كى لا يغفل الإنسان عما قالوه فان إمكانه ليس ببعيد فى أول الأمر فليبحث المتعلم المسترشد عنه ليعرف سره وغائلته ، فان قلت إنى وإن كنت لا أعتقد مذهب التصوف فلا تسمح نفسى أيضاً بعد أن استغرقت عمرى فى الفقه خلافا ومذهبا أن أنحط عند الصوفية إلى هذه الرتبة الخسيسة فأرى بهذه العين فلم قلت إن مذهبهم يوجب هذا .

(فاعلم) أنك تتحقق السبب إن علمت تفاصيل ماسبق من ارتباط السعادة بمحو وإثبات عن النفس وفيها وأن المحو لما لا ينبغى أن يكون تزكية لها والاثبات لما ينبغى أن يكون تكميلا لها بكشف الحقائق - وذلك لايحصل إلا بتهذيب الأخلاق والتفكر فى آلاء الله وملكوت السموات والأرض حتى تنكشف أسرارها ، والفقه إنما يحتاج إليه من حيث إنه محتاج إليه البدن ، والبدن لا يبقى إلا بعلم الأبدان وهو الطب ، وعلم الأديان وهو الفقه إذ الآدمى خلق بحيث لا يمكن أن يعيش وحده كالبهيمة الوحشية بل يفتقر إلى أن يكون بين جمع متعاونين على أشغال كثيرة فى تهيئة المطاعم والملابس وآلاتهما ، ولا بد إذ كان لهم اجتماع من أن يكون بينهم عدل وقانون فى المعاملة عليه يترددون ولولاه لتنازعوا وتقاتلوا وهلكوا ، فالفقه هو بيان ذلك القانون وتفصيله فى ربع النكاح والمعاملات والعقوبات ، فالبدن فى طريق السائرين إلى الله تعالى يجرى مجرى الناقة والراوية فى طريق الحج ، ومصالح الأبدان كمصالح الناقة والراوية والعلم والمتكفل بمصالح

البدن كالصناعة المتكفلة بخرز الراوية وتقديرها وتطهيرها ، ورتبته من هذا المقصد كرتبتها من ذلك المقصد إن صح ما ذكروه فى السلوك والاستعداد والمقصد ، وأنهم يقولون لولا إرادة الله عمارة الدنيا لارتفعت الحجب وزالت الغفلة وتوجه الخلق كلهم إلى سبيل الله وترك كل فريق ما هو بعيد عن المقصود ولكن كل حزب بما لديهم فرحون وبه قوام العالم بل لولاه لبطلت الصناعات ، فلولم يعتقد الخياط والحائك والحجام فى صنعته ما يوجب ميله إليها لتركها وأقبل الكل على أشرف الصنائع ولبطلت كثرة الصنائع فإن هذه الأسباب ضرورية فى تهيئة الأسباب من أرباب الصنائع فمن رحمة الله غفلتهم بوجه من الوجوه ، وعليه حمل بعضهم قوله عليه السلام (اختلاف أمتى رحمة) يعنى اختلاف هممهم ولو عرف الكناس ما فى صناعته لتركها ولاضطر العلماء والخلفاء والأولياء أن يتولوها بأنفسهم — وكذلك الدباغة والحدادة والزراعة وجميع الأمور ، فلولا أن الله تعالى حبب علم الفقه والنحو ومخارج الحروف والطب والفقه فى قلوب طوائف لبقيت هذه العلوم معطلة ولتشوش النظام الكلى وليس من شرط المتجرد لعلم أو صناعة أن يطلع على قدر رتبته ونسبته إلى من فوقه بل إلى من تحته ، وإنما المطلع على جملة مراتب العلوم هو المتكفل بالعلوم كلها وهو الذى آتاه الله الحكمة وأراه الأشياء على ما هى عليه ، فهذا جواب هؤلاء ، وإليك الرأى [illegible] فى الاقتصار على ما أنت فيه [illegible] هؤلاء والبحث عن [illegible] الفن لتعرف حقيقة الحق فيه ([illegible] المباشرة للمتعلم)

أن يكون قصده فى كل مايتعلمه فى الحال كمال نفسه وفضيلتها ، وفى الآخرة التقرب إلى الله عز وجل ولا يكون قصده الرئاسة والمال ومباهاة السفهاء ومماراة العلماء فقد قال عليه السلام (من تعلم العلم ليباهى به السفهاء ويمارى به العلماء دخل النار) وقد سبق أن العلوم لها منازل فى الوصول بها إلى الله عزوجل والقوام بتلك العلوم كحفظة الرباطات فى طريق الجهاد ، فإذا عرف كل أحد رتبته ووفاه حقه وقصد به وجه الله تعالى لم يضع أجره فإن الله يرفعه بقدر علمه فى الدنيا والآخرة ، وقال تعالى (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) وقال (هم درجات عند الله) ولا ينبغى أن يغتر رأيك فى العلوم بما حكيناه من طريق الصوفية فإنهم لايعتقدون حقارة العلوم بل يعتقد كل مسلم حرمتها وعظمتها ، وما ذكروه إنما أوردوه بالإضافة إلى مرتبة الأولياء والأنبياء وذلك جار مجرى استحقارك الصارفة عند قياسهم بالسلاطين والوزراء ، وذلك لايوجب نقيصتهم مهما قستهم بالكناسين والدباغين ولا تطالب من نزل عن الرتبة القصوى لسقاطة القدر بها فإن الرتبة القصوى للأنبياء ثم للأولياء ثم للعلماء على تفاوت مراتبهم ثم للصالحين فى الأعمال ، وبالجملة (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) ومن قصد االتقرب إلى الله بالعلوم نفعه الله ورفعه لا محالة ، فهذه هى الوظائف للمتعلم ، وأما وظائف المعلم المرشد فهى ثمان (واعلم) قبل كل شىء أن للإنسان فى العلم أربعة أحوال كما فى اقتناء الأموال إذ لصاحب المال حال استفادة فيكون مكتسبا وحال ادخار لما اكتسبه

فيكون به غنيا عن السؤال وحال إنفاق على نفسه فيكون منتفعاوحال إفادته غيره بالإنفاق فيكون به سخيا متفضلا وهو أشرف أحواله ، فكذلك العلم كالمال ولصاحبه حال استفادة وحال تحصيل وهو فيه محصل مستغن عن السؤال وحال استبصار وهو تفكره فى المحصل وحال تبصير وتعليم وهو أشرف أحواله . فمن أصاب علما فاستفاده وأفاد كان كالشمس تضيء لنفسها ولغيرها وهى مضيئة والمسك الذى يطيب وهو طيب ، ومن أفاد غيره ولم ينتفع به فهو كالدفتر يفيد غيره وهو خال عنه وكالمسن يشحذ غيره ولا يقطع أو كذبالة المصباح تضيء غيرها وهى تحترق ، فأول وظائف المعلم أن يجرى المتعلم منه مجرى بنيه كما قال عليه السلام (إنما أنا لكم مثل الوالد لولده) وليعتقد المتعلم أن حق المعلم أكبر من حق الأب فإنه سبب حياته الباقية والأب سبب حياته الفانية ، وكذلك قال الاسكندر لما قيل له أمعلمك أكرم عليك أم أبوك ، فقال بل معلمى وكما أن من حق بنى الأب الواحد أن يتحابوا ولا يتباغضوا — فكذلك حق بنى المعلم بل حق بنى الدين الواحد فإن العلماء كلهم مسافرون إلى الله تعالى وسالكون إليه الطريق ، والترافق فى الطريق يوجب تأكد المودة فأخوة الفضيلة فوق أخوة الولادة ، وإنما منشأ التباغض إرادتهم بالعلم والمال والرياسة فيخرجون به عن سلوك سبيل الله ويخرجون عن قوله تعالى (إنما المؤمنون إخوة) ويدخلون تحت قوله (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) (الوظيفة الثانية) أن يقتدى بصاحب الشرع فلا يطلب على إفادة العلم أجرا وجزاء قال تعالى (قل لا أسألكم عليه أجراً) فإن من يطلب المال

وأغراض الدنيا بالعلم كمن نظف أسفل مداسه بوجهه ومحاسنه فجعل المخدوم خادماً إذ خلق الله الملابس والمطاعم خادمة للبدن وخلق البدن مركبا وخادما للنفس ، وجعل النفس خادمة للعلم : فالعلم مخدوم ليس بخادم ، والمال خادم ليس بمخدوم ولا معنى للضلال إلا عكس هذا الأمر . والعجب أن الأمر قد انتهى بحكم تراجع الزمان وخلو الاعصار عن علماء الدين إلى أن صار المتعلم يقلد معلمه ليستفيد منه ويجلس بين يديه ويطمع فى أغراض دنيوية عوضا عن استفادته وهذا غاية الانتكاس ومنشأ ذلك طلب المعلمين الرياسة والتجمل بكثرة المستفيدين لقصور علمهم وعدم ابتهاجهم بكمال علومهم الذاتية فأطمع ذلك المستفيدين منهم فيهم (الوظيفة الثالثة) ألا يدخر شيئا من نصح المتعلم وزجره عن الأخلاق الردية بالتعريض والتصريح ومنعه أن يتشوق إلى رتبة فوق استحقاقه وأن يتصدى لاشتغال فوق طاقته وأن ينبهه على غاية العلوم ، وإنما هى السعادة الأخروية دون أغراض الدنيا فإن رأى من لا يتعلم إلا لأجل طلب الرياسة ومباهاة العلماء لم يزجره عن التعلم فاشتغاله بالتعلم مع هذا القصد خير من الاعراض فإنه مهما اكتسب العلم تنبه بالآخرة لحقائق الأمور وأن الطالب بالعلم لأغراض الدنيا مغبون ، وقد بين العلماء هذا المعنى بقولهم تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا لله بل أقول إن كان الناس لا يرغبون فى تعلم العلم لله فينبغى أن يدعوهم إلى نوع من العلم يستفاد به الرياسة بالأطماع فى الرياسة حتى يستدرجهم بعد ذلك إلى الحق [illegible] رؤى الرخصة فى تعلم المناظرة فى الفقهيات لأنها بواعث على [illegible] لطالب

المباهاة أولا ثم بالآخرة يتنبه لفساد قصده ويعدل عنه إلى المنهج القويم ويجرى هذا المجرى من قصدنا فى إرهاق الصبى إلى التعلم بالأطماع فى الرياسة انا نطمعه فيه بالصولجان وشراء الطيور وأسباب اللعب ونطلق له ذلك فى بعض الأوقات لتنبعث دواعيه إلى التعلم ابتداء طمعاً فيما رعيناه آخرا تدريجيا ، وقد جعل الله تعالى قصد الرياسة من تعلم العلم حفظا للشرع والعلم ويجرى تحريض المتعلمين على العلم بالأطماع فى الرياسة وحسن الذكر مجرى الحب يبث حوالى القمح والملواح(١) المقيد على الشبكة ومجرى شهوة الغذاء والنكاح التى خلقهما الله داعية إلى الفعل الذى فيه بقاء الشخص والنوع ، ولولا هذه المصلحة فى المناظرة لما كان يجوز أن يسمح فيها بحال من الأحوال فإنها ليست تفضى إلى تغيير المذاهب وترك المعتقد (الوظيفة الرابعة) إنه ينبغى أن ينهى عما يجب النهى عنه بالتعريض لا بالتصريح لأن التعريض يؤثر فى الزجر والتصريح بالزجر مما يغرى بالمنهى عنه ، قال عليه السلام (لو نهى الناس عن فت البعر لفتوه وقالوا مانهينا عنه إلا وفيه شيء)وينبه على هذا قصة آدم وحواء وما نهينا عنه ، وقد قيل رب تعريض أبلغ من تصريح ـ وذلك أن النفوس الفاضلة لميلها إلى الاستنباط والتنبه للخفيات تميل إلى التعريض شغفا باستخراج معناه بالفكر . والتعريض لا يهتك حجاب الهيبة ، والتصريح يرفعه بالكلية فيستفيد المنهى جراءه على المخالفة إذا اضطر إلى المخالفة مرة أخرى (الوظيفة الخامسة) إن المتكفل ببعض العلوم لا ينبغى له أن يقبح

(١) هكذا بالأصل ولعل الأصح القمط أو اللوح .

فى نفس المتعلم العلم الذى ليس بين يديه كما جرت عادة معلمى اللغة من تقبيح الفقه عند المتعلمين وزجرهم عنه وعادة الفقهاء من تقبيح العلوم العقلية والزجر عنها بل ينبه على قدر العلم الذى فوقه ليشتغل به عند استكمال ما هو بصدده ، وإن كان متكفلا بعلمين مترتبين فإذا فرغ من أحدهما رقى المتعلم إلى الثانى وراعى فيه التدريج (الوظيفة السادسة) أن يقتصر بالمتعلمين على قدر إفهامهم فلا يرقيهم إلى الدقيق من الجلى وإلى الخفى من الظاهر هجوما وفى أول رتبة ولكن على قدر الاستعداد اقتداء بمعلم البشر كافة ومرشدهم حيث قال (إنا معشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ونكلم الناس بقدر عقولهم) وقال (ما أحد يحدث قوما حديثا لا يبلغه عقولهم إلا كان ذلك فتنة على بعضهم) وقال على رضى الله عنه وقد أومأ إلى صدره (إن ههنا لعلوما جمة لو وجدت لها حملة) وقال عليه السلام (كلموا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون أتريدون أن يكذب الله ورسوله) وقال تعالى (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم) وسئل بعض المحققين عن شىء فأعرض ، فقال السائل أما سمعت قول رسول الله عليه السلام (من كتم علما نافعا جاء يوم القيامة ملجما بلجام من نار) فقال اترك اللجام واذهب فإن جاء من يفقه فكتمته فليلجمنى به ولما قال تعالى (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم) نبه على أن حفظ العلم وإمساكه عمن يفسده العلم أولى ، ولما قال تعالى (فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم) نبه على أن من بلغ رشده فى العلم ينبغى أن يبث إليه حقائق العلوم ويرقى من الجلى الظاهر إلى الدقيق الخفى الباطن فليس الظلم فى منع المستحق بأقل من الظلم فى إعطاء غير المستحق . وقال المتقدم فى مثل ذلك :

(فمن منح الجهال علما أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم)

وادخار حقائق العلوم عن المستحق لها فاحشة عظيمة ، قال الله تعـــالى « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه » (الوظيفة السابعة) أن المتعلم القاصر ينبغى أن يذكر له مايحتمله فهمه ولا يذكر له أن ماوراء ماذكرت لك تحقيقا وتدقيقا أدخره عنك فإن ذلك يفتر رأيه فى تلقف ما ألقى إليه بل يخيل إليه أنه كل المقصود حتى إذا استقل به رقى إلى غيره بالتدريج . ومن هذا يعلم أن من تقيد من العوام بقيد الشرع واعتقد الظاهر وحسن حاله فى السيرة فلا ينبغى أن يشوش عليه اعتقاده وينبه على تأويلات الظواهر فان ذلك يؤدى إلى أن ينحل عنه قيد الشرع ثم لا يمكن أن يقيد بتحقيق الخواص فيرتفع السد الذى بينه وبين الشرور فينقلب شيطانا وشريراً بل ينبغى أن يرشد إلى علم العبادات الظاهرة والأمانة فى الصناعة التى هو بصددها وأن يملأ نفسه من الرغبة والرهبة على الوجه الذى نطق به القرآن وأن لا يولد له شبهة فان تولدت شبهة وتشوقت نفسه إلى حلها فيعالج دفع شبهته بما يقنع به من كلام عامى وإن لم يكن على حقائق الأدلة ، ولا ينبغى أن يفتح له باب البحث والطلب فإنه يعطل عليه الصناعة التى بها تعمر الأرض وينتفع الخلق ، ثم يقصر عن درك العلوم فان وجد ذكيا مستعداً لقبول الحقائق العقلية جاز أن يساعده على التعليم إلى أن تنحل له الشبهات ، وقد حكى عن بعض الأمم السالفة أنهم كانوا يخبرون المتعلم مدة فى أخلاقه فان وجدوا فيه خلقا

رديا منعوه التعلم أشد المنع . وقالوا إنه يستعين بالعلم على مقتضى الخلق الردىء فيصير العلم آلة شر فى حقه وإن وجدوه مهذب الأخلاق قيدوه فى دار العلم وعلموه وما أطلقوه قبل الاستكمال خيفة أن يقتصر على البعض ولا تكمل نفسه فيفسد به دينه ودين غيره — وبهذا الاختبار قيل (نعوذ بالله من نصف متكلم ونصف طبيب فذلك يفسد الدين وهذا يفسد الحياة الدنيا) (الوظيفة الثامنة) أن يكون المعلم للعلم العملى أعنى الشرعيات عاملا بما يعلمه فلا يكذب مقاله بحاله فينفر الناس عن الاسترشاد والرشد — وذلك أن العمل مدرك بالبصر والعلم بالبصيرة وأصحاب الأبصار أكثر من أرباب البصائر فليكن عنايته بتزكية أعماله أكثر منه بتحسين علمه ونشره ، وكل طبيب يتناول شيئا وزجر الناس عنه وقال لا تتناولوه فانه سم يحمل على الهزؤ والسفه وإنهم واعتقد فيه أنه أنفع الأشياء ، وإنما هو الذى يريد أن يستأثر به فينقلب النهى إغراء وتحريضا ، والمتعظ من الواعظ يجرى مجرى الطين من النقش والظل من العود وكيف ينتقش الطين بما لا نقش فيه وكيف يستوى الظل والعود أعوج ولذلك قيل :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

بل قال الله تعالى (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم) ولذلك قيل وزر العالم فى معاصيه أكثر من وزر غيره لأنه يقتدى به فيحمل أوزارا مع أوزاره كما قال عليه السلام (من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة) فعلى كل عاصر فى كل معصية وظيفة

واحدة وهو تركها وترك الإظهار كيلا يتبعه الناس فاذا أظهر فقد ترك واجبين وإن أخفى فقد ترك أحد الواجبين ، ولذلك قال على رضى الله عنه (قصم ظهرى رجلان جاهل متنسك وعالم متهتك فالجاهل يغر الناس بنسكه والعالم يغرهم بتهتكه) .

(بيان تناول المال وما فى كسبه من الوظائف)

اعلم أن حب الدنيا رأس كل خطيئة وأن الدنيا مزرعة الآخرة ففيها الخير النافع وفيها السم الناقع ، ومثالها مثال حية يأخذها الراقى ويستخرج منها الترياق ويأخذها الغافل فيقتله سمها من حيث لا يدرى ، وقيل المال من الخيرات المتوسطة فانه ينفع من وجه ويضر من وجه فلم يكن بد من الاقتصار على النافع منه والاحتراز من المهلك منه ، وأصل ذلك معرفة رتبة المال من المقاصد فان أصل الأمور كلها العلم بحقائق الأشياء فنقول على طالب السعادة الأخروية وظائف فى حق المال من حيث جهة الدخل وجهة الخرج ، وقدر المتناول بالنية الواجبة فى تناوله (الوظيفة الأولى) معرفة رتبته فقد سبق أن المقتنيات المرغوب فيها ثلاثة نفسية ثم بدنية ثم خارجية والخارجية أدناها رتبة والمال من جملة الخارجية وأدناها الدراهم والدنانير فانهما خادمان ولا خادم لهما إذ النفس تخدم العلم والفضائل النفسية لتحصلها ، والبدن يخدم النفس فيكون آلة والمطاعم والملابس تخدم البدن ، والدراهم والدنانير تخدم المطاعم والملابس ، وقد سبق أن المقصود من المطاعم إبقاء البدن ومن البدن تكميل النفس فمن عرف هذا الترتيب وراعاه فقد عرف

قدر المال ووجه رتبته وعرف وجه شرفه من حيث هو ضرورة كمال النفس ومن عرف غاية الشيء واستعمله لتلك الغاية فقد أحسن إلى الغاية وعند ذلك يقتصر على قدر الحاجة الموصلة إلى الغاية فلا يركن إليه معتكفا بكنه همته عليه وبهذا النظر ينكشف له الشبهة فى ذم الله تعالى المال فى مواضع حيث قال (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) ومدحه حيث امتن به فقال (ويمددكم بأموال وبنين) فانه من حيث كونه وسيلة للآخرة محمود ومن حيث كونه صارفا عنها مذموم ، ولذلك قال عليه السلام نعم المال الصالح ، وقال تعالى (لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون) وكيف لا يكون خاسرا من يجمع الشعير لدابته فيضع الدابة ويشتغل بتنقية الشعير وعد حباته وبناء حصن حواليه حتى تهلك الدابة جوعا — وهذا مثال من صرفته الدنيا عن الآخرة وهو الخسران بل مثال الناس كلهم فى الاغترار بزهرة الدنيا والاعتكاف على لزوم لذاتها ، مثال راكبي سفينة متوجهين إلى أفضل بلدة ينال فيها أعلى رتبة فأفضت بهم السفينة إلى جزيرة ذات أسود وأساود فأمروا بالخروج تهيئة للطهارة وأن يكونوا على حذر من غوائل الجزيرة فرأوا حجرا مزبرجا وزهرا منورا فأعجبهم ذلك وشغفوا به فتباعدوا عن المركب ونسوا المركب والمقصد وبقوا لاهين حتى سارت السفينة وجن عليهم الليل فثارت عليهم الأسود تفترسهم والأساود تنتهشهم ولم يغن عنهم حجرهم وزهرهم شيئا فيقول واحد منهم ياليتنى كنت ترابا والآخر يقول: ماأغنى

عنى ماليه هلك عنى سلطانيه ، والآخر يقول: ياحسرتا على مافرطت فى جنب الله ولم يبق بأيديهم إلا حسرة وندامة لا آخر لها ومجاورة الأفاعى والأسود مع الخزى والنكال فهذا بعينه مثال المغترين بمتاع الدنيا ، ولهذا الخطر العظيم استعاذ الخليل إبراهيم وقال (اجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام) وعنى به هذين الحجرين الذهب والفضة إذ رتبة النبوة أجل من أن يخشى فيها أن تعتقد الإلهية فى شىء من الحجارة ، ولهذا قال على (ياحميراء غرى غيرى ويا بويضاء غرى غيرى) ولذلك شبه عليه السلام طلاب الدنانير والدراهم المشغوفين بهما بعبدة الحجارة فقال تعس عبد الدراهم تعس عبد الدنانير ولا انتعش وإذا شيك فلا انتقش (الوظيفة الثانية فى مراعاة جهة الدخل والخرج) فالدخل إما بالاكتساب وإما بالبخت أما البخت فيراث أووجود كنز أوحصول عطية من غير سؤال ، وأما الكسب فجهاته معلومة ، ومن أخذ من حيث كان مذموما شرعا فلا ينبغى أن يأخذ إلامن وجهه ، والوجوه الطيبة معلومة من الشرع ، فان وجد حلالا طيبا فليأخذه وإن كان حراما محضا فليجتنبه ، وإن كان مشتبها والغالب أنه حرام فليجتنبه ، وإن كان الغالب أنه حلال فان قدر على الحلال المطلق من غير تعب فليترك ، فان من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه وإن لم يتيسر الحلال المطلق فليأخذ منه قدر الحاجة فان كان يقدر على الحلال المطلق ولكن بعد طول التعب واستغراق الوقت ، فان كان من العباد العاملين بالجوارح مع اعتقاد عامى مصمم فليشتغل بطلب الحلال فان تعبه فى

طلب الحلال عبادة كتعبه فى سائر العبادات ، وإن كان من أصحاب القلوب وأرباب العلوم وكان يتعطل عليه ما هو بصدده لو استغرق أوقاته فى الحلال المطلق فليأخذ من الذى يتيسر قدر حاجته فإن المحظور المحض قد ينقلب مباحا خوفا من محظور آخر أشر منه ، فمن غص بلقمة فله أن يتناول الخمر حذرا من فوات النفس ، والعلم وعمل القلب لا يوازيه غيره ، فالكل خدم له فكما يباح إتلاف مال الغير على النفس بل يحل تناول لحم الخنزير فكذلك فى محل الشبهة يتساهل فى التحريض على العلم وعند هذا قد يثور شغب الجاهل مهما تناول العالم مازجر عنه الجاهل إذ لا يدرك الجاهل تفاوت هذه الدقيقة بينهما وليكن العالم متلطفا فى ذلك كيلا يحرك سلاسل الشيطان (الوظيفة الثالثة فى المقدار المأخوذ) ومهما عرفت أن المال لماذا دائر فمعناه مقدار الحاجة المذكورة ولا غنى بك عن ملبس ومسكن ومطعم وفى كل واحد ثلاث مراتب أدنى وأوسط وأعلى ، وأدنى المسكن مايقل من الأرض من رباط أو مسجد أو وقف كيفما كان وأوسطه ملك لا تزاحم فيه فتقدر على أن تخلو فيه بنفسك وتبقى معك عمرك وهو على أقل الدرجات من حسن البناء وكثرة المرافق وهو حد الكفاية ، وأعلاه دار فيحاء فسيحة مزينة البناء كثيرة المرافق وتتبعها زيادات لا تنحصر على مايرى عليه أرباب الدنيا وأولى الرتب والأول هو قدر الضرورة إذ المقصود من المسكن أرض تقلك يحيط بها حائط يمنع عنك السباع ويظل عليك سقف يمنع المطر وحر الشمس ولن يقنع به

إلا المتوكلون والأوسط هو حد الكفاية ومابعده خارج عن حد الدين وإقبال على امر الدنيا أعنى الاشتغال بزينتها ، فأما الجلوس فيها مع الغفلة عنها دون ابتهاج بها وطمأنينة إليها فمن المباحات ، وأما صرف الأوقات إلى تزيينها فمباح للعوام على لسان الفقه الذى عقد لضرورة جهل العوام وقصورهم عن مشافهتهم بالمنع منه ، فأما فى طريق التصوف فحرام وأعنى بالتصوف ما خلق الإنسان له من سلوك سبيل القرب إلى الله تعالى والعبادات لا مناقشة فيها ـ ولذلك قيل مباحات الصوفية فريضة وفريضتهم مباحات أى يقتصرون على قدر الضرورة من المباح ويواظبون على الفرائض كما يواظبون على هذه فهى عندهم كالمباحات ، وأما المطعم فهو الأصل العظيم إذ المعدة مفتاح الخيرات والشرور — ولهذا أيضا ثلاث مراتب أدناها قدر الضرورة وهو مايسد الرمق ويبقى معه البدن وقوة العبادة وذلك يمكن تقليله بالعادة تارة بتقليل الطعام شيئاً فشيئاً حتى يتعود الصبر عنه عشرة أيام وعشرين ، وقد انتهى الزهاد فى القدر كل يوم إلى حمصه ، وبعضهم فى الوقت عشرين يوما وقيل أربعين وهذه رتبة عظيمة يقل من يستقل بها ، فإن لم يقدر عليه فالدرجة الوسطى وهى فى ثلث البطن كما ذكرناه من قبل ، ولا ينبغى أن يزيد على القدر الذى حدده الشرع ، فالزيادة عليه بطنه . ثم يقتصر أيضا من نوعه على الوسط كما اقتصر من قدره على الوسط فنعم السعيد من قنع بقدر الكفاية من الجملة ولكن النظر يختلف فى قدر الكفاية إلى الوقت فرب إنسان هو فارغ القلب من قوت يومه مشغول القلب

بعدة وينتهى حرصه إلى أن يقدر لنفسه عمراً طويلا ويريد أن يفرغ
قلبه طول عمره ، ثم قد يقدر له حوائج فيطلب الاستظهار بالخزائن
وهو الضلال المحض ، والمدخر بالإضافة إلى المستقبل ثلاث درجات
فأدناها قوت يوم وليلة وأعلاها مايجاوز سنة وأوسطها قوت سنة
وأرفع الدرجات درجة من يلتفت إلى غده وقصر همته على يومه ومن
يومه على ساعته ومن ساعته على نفسه وقدر نفسه كل لحظة مرتحلا من
الدنيا مستعدا للارتحال ، ومن لم يشتغل بهذا وكان فارغ القلب عن
قوت سنة فاشتغل بما وراءه كان من المطرودين المذكورين بقوله
(يحسب أن ماله أخلده) ، وأما الملبس فكذلك فيه ثلاث درجات
فأدناها من حيث القدر مايستر العورة أو الجملة المعتاد سترها من أدنى
الأنواع وأخشنها وبالإضافة إلى الوقت مايبقى يوما وليلة كما نقل عن
عمر رضى الله تعالى عنه أنه رقع قميصه بورق شجر ، فقيل له هذا
لا يبقى فقال أو أحيا إلى أن يفنى . وأوسطه مايليق بمثل حاله من
غير تنعم وترفه ولاملبوس حرام كابريسم غالب ، وأعلاه جمع الثياب
وطلب الترفه بها على ما عليه جماهير أهل الدنيا (وأما المنكح) فإنه
يزيد فى حق من تاقت نفسه إلى الوقاع وبحسبه تزيد الحاجة ، وقد
ذكرنا مايحمد من المنكح وما يذم وفيما ذكرناه مقنع ومن ساعده من
هذه الأمور قدر كفايته ثم اشتغل قلبه بغيره كان مغبونا بل ملعونا .
قال عليه السلام (من أصبح آمنا فى سربه معافا فى بدنه وله قوت يومه
فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها) وذلك لأن الدنيا بلاغ إلى الآخرة

وهذا القدر كاف فى البلغة فالباقى فضل على الكفاية وزيادة ووجودها فى حق العاقل كعدمها (الوظيفة الرابعة فى الخرج والإنفاق) وكما للدخل وجه معين فكذا الخرج فلا بد من مراعاة الترتيب فيه فالإنفاق محمود ومذموم كالأخذ ، والمحمود منه ما يكسب صاحبه العدالة وهو الصدقة المفروضة والإنفاق على العيال ، ومنه ما يكسب الحرية والفضيلة وهو إيثار الغير على النفس على الوجه المندوب إليه شرعا ، والمذموم ضربان إفراط وتفريط ، فالإفراط الإنفاق أكثر مما يجب بحيث لا يحتمله حاله فيما لا يجب والإخلال بالأهم والصرف إلى ما دونه ، والتفريط المنع عما يجب الصرف إليه والنقصان من القدر الذى يليق بالحال ، ومهما أخذ العبد المال من وجهه ووضعه فى وجهه كان محمودا مأجورا ، فإن قلت فمن وسع الله عليه المال فأخذه وإنفاقه بالمعروف أولى أو الإعراض عن أخذه (فاعلم) أن الناس قد اختلفوا فى هذا فقالوا الناس ثلاثة أصناف صنف هم المنهمكون فى الدنيا بلا التفات إلى العقبى إلا باللسان وحديث النفس وهم الأكثرون ، وقد سموا فى كتاب الله عبدة الطاغوت وشر الدواب ونحوها ، وصنف مخالفون لهم غاية المخالفة اعتكفوا بكنه هممهم على العقبى ولم يلتفتوا أصلا إلى الدنيا وهم النساك ، وصنف ثالث متوسطون وفوا الدارين حقهما وهم الأفضلون عند المحققين لأن بهم قوام أسباب الدنيا والآخرة ، ومنهم عامة الأنبياء عليهم السلام إذ بعثهم الله عز وجل لإقامة مصالح العباد فى المعاش والمعاد ، وقيل ثلاثتهم المراد بقوله تعالى (وكنتم أزواجا ثلاثة

فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة والسابقون السابقون) فالمراعى للدنيا والدين كما يجب وعلى ما يجب جامعا بينهما خليفة الله فى أرضه فهو السابق عند قوم ، فإن قلت فقد قال تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) (فاعلم) أن مراعاة مصالح العباد من جملة العبادة بل هى أفضل العبادات قال عليه السلام (الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله) فإن قلت فقد قال بعض المحققين الناس ثلاثة رجل شغله معاشه عن معاده فهو من الفائزين ورجل شغله معاشه عن معاده فهو من الهالكين ، ورجل مشتغل بهما وذلك درجة المخاطرين ، والفائز أحسن حالا من المخاطر (فاعلم) أن فيه سرا وهو أن المنازل الرفيعة لا تنال إلا باقتحام الأخطار ، وإنما هذا الكلام ذكر تحذيراً وتنبيها على خطر الخلافة لله تعالى فى أمر عباده حتى لا يترشح لها من لا يقدر عليها ، وقد حكى أن بعض أولاد الملوك العادلة عظمت رتبته فى العلم والحكمة فاعتزل الناس وزهد فى الدنيا فكتب إليه بعض الملوك قد اعتزلت ما نحن فيه فإن علمت أن مااخترته أفضل فعرفنا لنذر ما نحن فيه ولا تحسبنى أقبل منك قولا بلا حجة فكتب إليه (اعلم) انا عبيد لرب رحيم بعثنا إلى حرب عدو وعرفنا أن المقصد من ذلك قهره أو السلامة منه ، فلما قربنا من الزحف صرنا ثلاثة أقسام ، متخوف طلب السلامة منه فاعتزل عنه فالتزم ترك الملامة وإن لم يكتسب المحمدة ، ومتهور قدم على غير بصيرة فجرحه العدو وقهره واستجلب بذلك سخط ربه ، وشجاع أقبل على بصيرة

فقاتل وأبلى واجتهد فهو الفائز التام الفوز ، وإنى لما وجدتنى ضعيفا رضيت بأدنى الهمتين وأدون المنزلتين ، فكن أيها الملك من أفضل الطوائف تكن من أكرمهم عند الله — وهذا الكلام يكشف عن حقيقة الأمر فيه وينبه على صحة ذلك قوله تعالى (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض)وإنما يمكن الإحسان بإدخال السرور على قلوب المسلمين بالمال ولكن الخطر فيه عظيم فإنه ربما يشتغل من ضعفت بصيرته بما فيه ضرره من حيث لا يدرى فلخطره وجبت المبالغة فى الزجر عنه (الوظيفة الخامسة) أن تكون نيته صالحة فى الأخذ والترك فيأخذ ما يأخذ ليستعين به على العبادة ويأكل ليتقوى به على العبادة ويترك ما يترك زهدا فيه واستحقارا له فقد قال عليه السلام (من طلب رزقه على ماسن فهو جهاد) وقال عليه السلام لابن مسعود (إن المؤمن ليؤجر فى كل شىء حتى اللقمة يضعها فى فم امرأته) وأراد بالمؤمن من يعرف حقائق الأمور فيقصد بما يتعاطاه وجه الله والاستعانة على سلوك طريقه ، وعند هذا يتبين أنه ليس الزاهد من لا مال له بل الزاهد من ليس مشغولا بالمال وإن كان له أموال العالمين ولذلك قال على رضى الله عنه لو أن رجلا أخذ جميع مافى الأرض وأراد به وجه الله فليس براغب ، فليكن جميع حركاتك وسكناتك لله بأن تكون حركتك مقصورة على عبادة أو على مايعين على عباده ولا يستغنى العباد عنه كالأكل وقضاء الحاجة مثلا فإنهما

معينان على العبادة وهما أبعد الحركات عن العبادة وعند هـذا يكون الـكامل النفس فى تناول الدنيا كالراقى الحاذق فى مس الحية متقياسمها ومستخرجا جوهرها ، والعـامى إذا تشبه به ونظر إليه ظن أنه[1] أخذها مستحسنا شكلها وصورتها مستلينا مسها مستصحبا إياها ، فإذا ظن ذلك أخذها وتقلدها فقتلته وقد شبهت الدنيا بها فقيل الدنيا كحية تنفث السموم النواقع وإن لان ملمسها وكما يستحيل أن يتشبه الأعمى بالبصير فى تخطى قلل الجبال وأطراف البحار والطرق المشوكة فمحال أن يتشبه العامى بالـكامل فى تناول الدنيا — وإذا تؤمل ملك سليمان وما أوتى مع رتبة النبوة علم أن الزهد زهد النفس لا خلو اليد وكيف تضر الدنيا بالأنبياء والأولياء وهم يعرفون ضرها ونفعها ورتبتها فى الوجود ويعلمون أن الإنسان فى وجوده ثلاث منازل (منزلة فى بطن أمه) (ومنزلة فى فضاء العالم) (ومنزلة بعد الموت) والدنيا فى مثال رباط بنى ، وينتهى إليه المسافر فى المنزل الأوسط ، وقد هيئت فيه أسباب وأوان وأقوات ليستعين بها المسافر وينتفع بها انتفاعه بالعارية والمنحة ويخليها لمن يلتحق بعده فيأخذها بشكر ويتركها بانشراح صدر وقد انتهى الرباط جماعة من الحمق فظنوا أن هذا المنزل وطن وأن هذه الأسباب ليست عارية وإنما هى موهبة مؤبدة فصاروا لا يخرجونها من أيديهم إلا بكسر اليد ونزع الروح ، وقيل إن مثل الناس فيما أعطوا من الدنيا كمثل رجل هيأ دارا وهو يدعو أقواما إلى داره على الترتيب

---

(١) قوله أنه أى الراقى والضمير فى ظن للعامى .

واجدا بعد واحد فدخل واحدا داره فقدم إليه طبق ذهب عليه بخور ورياحين ليشمه ويتركه لمن يلحقه لا ليتملكه فجهل رسمه فظن أنه وهب له فلما استرجع منه ضجر وتفجع ومن كان عالما برسمه انتفع به وشكره ورده بانشراح صدر ، فهذه وظائف المباشرة لأموال الدنيا .

(بيان الطريق فى نفى الغم فى الدنيا)

مهما كان الإنسان آمنا فى سربه معافا فى بدنه وله قوت يومه فحزنه وغمه بسبب أمر الدنيا إمارة نقصانه وحماقته فإن غمه ليس يخلو إما أن يكون تأسفا على ماض أو خوفا من مستقبل أو حزنا على سبب حاضر فى الحال ، فإن كان على فائت فالعاقل بصير بأن الجزع على مافات لا يلم شعثا ولا يرم ماانتكث ، وما لا حيلة له فالغم عليه خرق ولذلك قال تعالى (لكيلا تأسوا على مافاتكم) وقال الشاعر :
* وهل جزع مجدٍ على فأجزعا * وإن كان على حاضر فإما أن يكون حسدا لوصول نعمة إلى من يعرفه أو يكون حزنا للفقر وفقدان المال والجاه وأسباب الدنيا، وسبب هذا الجهل بغوائل الدنيا وسمومها ولو عرفها معرفتها لشكر الله تعالى على كونه من المخففين دون المثقلين ولو فكر العاشق فى منتهى حسن الذى يعشقه لم يعشقه إذ يعلم أن الدنيا حمالة المصائب كدرة المشارب تورث للبرية أنواع البلية مع كل لقمة غصة فما أحد فيها إلا وهو فى كل حال غرض لأسهم ثلاثة سهم نقمة وسهم رزية وسهم منية .

تناضله الأوقات من كل جانب فتخطئه طورا وطورا تصيبه

فمن كان معتبرا بما يتجدد كل يوم من ارتجاع النعم من أربابها وحلول القوارع بأصحابها وشدة اغتمامهم بفقدها لم يتأسف على فواتها ولذلك قيل لبعضهم لم تغتم قال لأنى لا أقتنى ما يغمنى فقده ، ومهما أمعن الإنسان فكره فى غفلة أرباب الدنيا عن الآخرة وكثرة مصائبهم فيها تسلى عنها وهان عليه تركها ، وكان بعض الصوفية وظّف على نفسه كل يوم أن يحضر دار المرضى (أى البيمارستان) ليشاهدهم ويشاهد عللهم ومحنهم ويحضر حبس السلطان أيضا ويشاهد أرباب الجنايات ومجيئهم لإقامة العقوبات وأيضاً يحضر المقابر فيشاهد أرباب العزاء وأسفهم على مالا ينفع مع اشتغال الموتى بما هم فيه وكان يعود إلى بيته بالشكر طول النهار على نعم الله عليه فى تخليصه من كل البلايا وحق الإنسان فى الدنيا أن ينظر أبدا ماعاش إلى من هو دونه ليشكر وفى الدين إلى من هو فوقه ليشمّر والشيطان إذا استولى نكس هذا النظر وعكسه ، فإذا قيل له لم تتعاطى هذا الفعل القبيح اعتذر بأن فلانا يتعاطى ماهو أكبر منه مع أنه ليس فى المعصية ولا فى الكفر مناظرة ـ وإذا قيل له لم لا تقنع بهذا الموجود فيقول فلان أغنى منى فلم أصبر على ماليس يصبر عنه ، وهذا عين الضلال والجهل المحض ، ومهما التقى الهم بهذا العائق بطل غم الحسد ، فمن أنعم الله عليه بنعمة فإن كان يستحقها لم يغتم به وإن كان لا يستحقها فوبالها عليه أكثر من نفعها فأما إن كان الغم فى الأمر المستقبل فإن كان على أمر ممتنع كونه أو واجب كونه مثل الموت فعلاجه محال، وإن كان ممكنا كونه نظر فإن

كان لا يقبل الدفع كالموت قبل الهرم فالحزن له حماقة ، وإن كان قابلا للدفع فلا معنى للغم بل ينبغى أن يحتال لدفع بعقل غير مشوب بحزن . فإذا فعل ما قدر عليه من تمهيد حيل الدفع بقى ساكن القلب منتظراً لقضاء الله وقدره عالماً بأنه لا مرد لما قضاه فيتلقاه بصبر إن لم يندفع ويتحقق أن ماقدر فهو كائن ويتذكر قوله تعالى (ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها) الآية وإنما حرص الناس على تهيئة أسباب الدنيا منشأه الغرور وحسن الظن بإنحسار الآفات وتقدم صفاء الأوقات وهيهات ثم هيهات قال على رضى الله عنه ماقال الناس لقوم طوبى لكم إلا وقد خبأهم الدهر ليوم سوء وصدق الشاعر فيما قال :

إن الليالى لم تحسن إلى أحد إلا أساءت إليه بعد إحسان

وما قصر أبو منصور الثعالبى فى وصف الدنيا حيث قال :

تسل عن الدنيا ولا تخطبنها ولا تخطبن قتالة من تناكح
فليس يفى مرجوها بمخوفها ومكروهها لما تدبرت راجح
لقد قال فيها الواصفون فأكثروا وعندى لها وصف لعمرى صالح
سلاف قصاراه زعاف ومركب شهى إذا استلذذته فهو جامح
وشخص جميل يونق الناس حسنه ولكن له أسرار سوء قبائح

فالعاقل إذا أمعن النظر فى هذه الأمور خف على قلبه أكثر الغموم إلا إذا كانت العلاقة قد استحكمت بينه وبين معشوق من آدمى أو مال أو عقار أو حرفة أو رياسة أو ولاية أو أمر من الأمور فلا

خلاص له عن عمومها إلا بعد قطع العلائق عنها ، ولا يمكن ذلك إلا بكف النفس عنها تدريجا والاشتغال بغيرها وإن كان ذلك الغير أيضاً مما يجانسها في وجوب التباعد عنه ولكن لا بأس بغسل الدم بالدم إذا كان الأول أشد لصوقا والتزاقا — وهذه من دقائق الرياضات فإن النزوع عما وقع الالف به دفعة واحدة عسر بل ممتنع — ولذلك يرقى الصبى الذى يعلم الأدب بالترغيب فى اللعب بالصولجان والطيور ، ثم يكف عن اللعب بالترغيب فى الثروة والمبال والتزيين بالثياب الجميلة وغيرها ، ثم يرقيه من ذلك بالترغيب فى المحمدة والثناء ونيل الكرامة والرئاسة ، ثم يرقيه بالترغيب فى سعادة الآخرة ويكون الرئاسة آخر مايخرج من رؤوس الصديقين ولقد كانت هذه المعالجة بأمور محذورة فى نفسها ولكن مطلوبة بالإضافة إلى ماهو شر منها وكأنها منازل وأطوار الآدمى يرتقى فيها واحداً واحداً ولا يمكن الخلاص إلا بهذا التدريج . فليراع ذلك فى كل صفة استولت على النفس واشتدت علاقتها وبقطع العلائق تمحى الغموم .

(بيان نفى الخوف من الموت)

للإنسان حالتان حالة قبل الموت ، وحالة عند الموت . أما قبل الموت فينبغى أن يكون الإنسان فيها دائم الذكر للموت كما قال عليه السلام (أكثروا من ذكر هازم اللذات فإنه ما ذكره أحد فى ضيق إلا وسعه عليه ولا فى سعة إلا ضيقها عليه) والناس فيها قسمان ، غافل وهو الأحمق الحقيقى الذى لا يتفكر فى الموت وما بعده إلا نظراً فى

حال أولاده وتركاته بعد موته ولا ينظر ويتدبر فى أحوال نفسه ولكن لا يتذكر إلا إذا رأى جنازة فيقول بلسانه (إنا لله وإنا إليه راجعون) ولا يرجع إلى الله عز وجل بأفعاله إلا بأقواله فيكون كاذبا فى أقواله تحقيقا ، وأما العاقل الكيس فلا يفارقه ذكر الموت كا المسافر إلى مقصد الحاج مثلا فإنه لا يفارقه ذكر المقصد ، وإشغال المنازل فى الحط والترحال لا تنسيه مقصوده ، وعلى الجملة فذكر الموت يطرد فضول الأمل ويكف غرب المنى فتهون المصائب ويحول بين الإنسان وبين الطغيان ، ومن ذكر الموت تتولد القناعة بما رزق والمبادرة إلى التوبة وترك المحاسدة والحرص على الدنيا والنشاط فى العبادة ، وينبغى أن يكون المتراخى عن عبادته ألا يصبح يوما إلا ويقدر أنه سيموت تقديرا للموت العاجل فإنه ممكن ، ومهما قدر الموت بعد سنين لم يحرص على العبادة ولم تفتر رغبته فى الدنيا بل لا ينبغى أن يهمل نفسه أكثر من يوم فيصبح كل يوم على تقدير الاستعداد للرحلة نهارا ، فكل من ينتظر أن يدعوه ملك من الملوك كل ساعة فينبغى أن يكون مستعداً للإجابة فإن لم يكن فربما يأتيه الرسول وهو غافل فيحرم عن السعادة . وما من وقت إلا ويرى فيه الموت ممكنا ، فإن قلت الموت فجأة بعيد . قلت فإذا وقع المرض فالموت غير بعيد — وذلك يمكن فى أقل من يوم ولا يكون بعيداً وأما الاغتمام لأجل الموت فليس من العقل أيضاً فإن ذلك الغم لا يخلو من أربعة أوجه ، إما لشهوة بطنه وفرجه ، وإما على مايخلفه من ماله ، وإما على جهله بحاله بعد الموت

ومآله ، وإما لخوفه على ما قدمه من عصيانه : فإن كان ذلك لشهوة بطنه وفرجه فهو كمشتهى داء ليقابله بداء مثله فإن معنى لذة الطعام إزالة ألم الجوع — ولذلك إذا زال الجوع وامتلأت المعدة كرة عين ما اشتهاه كمن يشتهى القعود فى الشمس ليناله الحر حتى يتلذذ بالرجوع إلى الظل وكمن يشتهى الحبس فى حمام حار ليدرك لذة ماء الثلج إذا شربه وهو عين الرقاعة والخرق وإن كان ذلك على ما يخلفه من ماله فهو بجهله بخساسة الدنيا وحقارتها بالإضافة إلى الملك الكبير والنعيم المقيم الموعود للمتقين وإن كان ذلك لجهله بعاقبة أمر بعد الموت فعليه أن يطلب العلم الحقيق الذى يكشف له حال الإنسان بعد موته كما قال حارثة للنبى صلى الله عليه وسلم كأنى أنظر إلى عرش ربى بارزاً . وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها وإلى أهل النار يتلاعنون فيها ، وهذا العلم إنما يحصل بالبحث عن حقيقة النفس وماهيتها ووجه علاقتها بالبدن ووجه خاصيتها التى خلقت لها ووجه التذاذه بخاصيته وكماله مع معرفة الرذائل المانعة له من كماله ، وقد نبه الشرع عليه فى مواضع كثيرة وأمر بالتفكر فى النفس كما أمر بالتفكر فى ملكوت السموات والأرض وإن كان ذلك لما سبق من عصيانه فلا ينفع الغم فيه بل المداواة وهو المبادرة إلى التوبة وإصلاح مافرط من أمره بل مثاله فى الاغتمام وترك التدارك مثل من فتح عرق من عروقه وقد خرج بعض دمه وهو قادر على تعصيبه وحفظ حشاشه فأهمله وجلس متأسفا على خروج ما خرج من دمه — وذلك أيضا من الحماقة فإن الفائت لا تدارك له ولا ينفع فيه التأسف فليشتغل بالمستقبل

(الحالة الثانية) حال الإنسان عند الموت والناس عنده ثلاثة أقسام (الأول) ذو بصيرة علم أن الموت يعتقه والحياة تسترقه وأن الإنسان وإن طال في الدنيا مكثه فهو كخطفة برق لمعت في أكناف السماء ثم عادت للاختفاء فلا يثقل عليه الخروج من الدنيا إلا بقدر مايفوت من خدمة ربه عز وجل والازدياد من تقربه والإشفاق مما يقول أو يقال له كما قال بعضهم لما قيل له لم تجزع قال لأني أسلك طريقا لم أعهده وأقدم على رب لم أره ولا أدري ما أقول وما يقال لي ، ومثل هذا الشخص لا ينفر من الموت بل إذا عجز عن زيادة العبادة ربما اشتاق إليه وقال بعضهم في مناجاته إلهي إن سألتك الحياة في دار الممات فقد رغبت في البعد عنك وزهدت في القرب منك فقد قال نبيك وصفيك صلى الله عليه وسلم (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله فقد كره الله لقاءه) (والثاني) رجل رديء البصيرة متلطخ السريرة منهمك في الدنيا منغمس في علائقها رضي بالحياة الدنيا واطمأن بها ويئس من الدار الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور ، فإذا خرج إلى دار الخلود أضر به كما تضر رياح الورد بالجعل ، وإذا خرج من قاذورات الدنيا لم يوافقه عالم العلاء ومصباح الملأ الأعلى فكان كما قال الله تعالى (ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا) فإن الدنيا سجن الأول وجنة الثاني (والأول) كعبد دعاه مولاه فأجابه طوعا فقدم عليه مسرورا بتوفره على الخدمة (والثاني) كعبد آبق رد إلى مولاه مأسوراً وقيد إلى حضرته مقهوراً فيبقى ناكس

الرأس بين يدى مولاه مختزياً من جنايته وشتان مابين الحالين (والقسم الثالث) رتبة بين الرتبتين رجل عرف غوائل هذا العالم وكره صحبته ولكن أنس به وألفه فسبيله سبيل من ألف بيتا مظلما قذراً ولم ير غيره فهو يكره الخروج منه وإن كان قدكره دخوله ، فإذا خرج ورأى ما أعد الله للصالحين لم يتأسف على ما كره فواته بل قال (الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور الذى أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب) ولا يبعد أن يكره الإنسان مفارقة شيء ثم إذا فارقه لا يتأسف عليه فالصبي وقت الولادة يبكى لما يناله من ألم الانتقال ثم إذا عقل لم يتمن العود إليه ، والموت ولادة ثانية يستفاد بها كمال لم يكن قبل بشرط أن لا يكون قد تقدم قبل ذلك الكمال من الآفات والعوارض ما أبطل قبول المحل للكمال كما أن الولادة سبب لكمال مغبوط لم يكن عند الاجتنان بشرط أن لا يكون قد تمكن فى رحم الأم من الأسباب والعلل والعوارض ما منع قبول الكمال ولكون الموت سبب كمال قال بعضهم ينبغى أن يكون دعاؤنا لعزرائيل عليه السلام وشكرنا له مثل دعائنا لجبرائيل وميكائيل وإسرائيل فإن جبرائيل وميكائيل هما سببان لاعلامنا بما فيه خلاصنا من الدنيا ونجاتنا فى الآخرة — وذلك بواسطة محمد صلى الله عليه وسلم وملك الموت سبب إخراجنا إلى ذلك العالم فحقه عظيم وشكره لازم. وقد حكى عن طائفة من حكماء الأمم السابقة أنهم كانوا يعظمون رجلا بالتقديس والتسبيح من حيث اعتقدوا أنه لا يعين على الحياة العرضية بل هو سبب للهلاك الذى به الخلاص من هذه الدنيا الدنية .

(بيان علامة المنزل الأول من منازل السائرين إلى الله تعالى)

(اعلم) أن سالك سبيل الله تعالى قليل والمدعى فيه كثير ، ونحن نعرفك علامتين تجعلهما أمام عينيك وتعتبر بهما نفسك وغيرك (فالعلامة الأولى) أن يكون جميع أفعاله الاختيارية موزونة بميزان الشرع موقوفة على حد توقيفاته إيراداً وإصداراً وإقداما وإحجاما إذ لا يمكن سلوك هذا السبيل إلا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها ولا يمكن ذلك إلا بعد تهذيب الأخلاق كما وصفنا من قبل ولا يتوصل إلى ذلك إلا إذا ترك جملة من المباحات فكيف يتأتى لمن لم يهجر المحظورات ولم يتوصل إليه مالم يواظب على جملة من النوافل فكيف يصل إليه من أهمل الفرائض بل الشرع فى تكليفه العالم اقتصر على فرائض ومحظورات يشترك فيها عوام الناس بحيث لا يؤدى الاشتغال بها إلى خراب العالم ، والسالك لسبيل الله يعرض عن الدنيا إعراضا لو ساواه الناس كلهم لخرب العالم فكيف ينال بمجرد الفرائض والواجبات اقتصاراً عليها دون النوافل ، ولذلك قال تعالى (لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت له سمعا وبصراً فبي يسمع وبي يبصر) وعلى الجملة لا يدعو إلى إهمال الفرائض واقتحام المحظورات إلا كسل لازب أو هوى غالب ، وكيف يسلك سبيل الله من هو بعد فى أسراء الكسل والهوى ، فإن قلت فسالك سبيل الله من خاض فى مجاهدة الكسل والهوى فأما من فرغ من قهرهما فهو واصل لا سالك فيقال هذا عين الغرور وجهل بالطريق والمقصد جميعاً بل لو محى جميع

الصفات الردية عن نفسه كان نسبته إلى المقصود نسبة من يقصد الحج وله غرماء متشبثون بأذياله فقضى ديونهم وقطع علائقهم فإن الصفات البدنية المستولية على النـاس مثل الغرماء الآخذين بمخنقه والسباع العادية الطالبة لأقواتها فإذا محاها ودفعها فقد دفع العلائق وبعده يستعد لابتداء السلوك بل هو كمعتدة تطمع أن ينـكحها الخليفة فإذا قضت عدتها المانعة من صحة النـكاح ظنت أن الأمور قد تمت وهيهات فلم يحصل منها إلا الاستعداد للقبول بدفع المانع وبقى إقبال الخليفة وإنعامه بالرغبة — وذلك رزق إلهى فما كل من تطهر وصل إلى الجمعة ولا كل من قضت عدتها وصلت إلى كل ما أرادت ، فإن قلت فهل تنتهى رتبة السالك إلى حد ينحط عنه بعض وظائف العبادات ولا يضره بعض المحظورات كما نقل عن بعض المشايخ من التساهل فى هذه الأمور (فاعلم) أن هذا عين الغرور وأن المحققين قالوا لو رأيت إنسانا يمشى على المـاء وهو يتعاطى أمراً يخالف الشرع فاعلم أنه شيطان وهو الحق ، وذلك أن الشريعة حنيفية سمحة فمهما مست حاجة أو حصلت ضرورة كان للشرع فيها رخصة فمن جاوز محل الرخصة فلا يكون عن ضرورة بل عن هوى وشهوة ، والإنسان مادام فى هذا العالم لا يأمن استيلاء الشهوة وعودها إلى القهر بعد الانقهار فينبغى أن يأخذ منها حذره فلا يتصور أن يدعو إلى مخالفة الشرع إلا طلب رفاهية ودعة أو نوع شهوة أو نوع كسل وكل ذلك يدل على التضمخ بالأخلاق الردية المتقاضية لها فمن زكى نفسه وغذاها بغذاء العلوم الحقيقية قوى

فى المواظبة على العبادة بل صارت الصلاة قرة عينه وصارت خلوة الليل أطيب الأشياء عنده لمناجاة ربه — فهذه العلامة لابد منها فى أول المنازل وتبقى إلى آخرها وإن لم يكن لمنازل السير إلى الله تعالى نهاية ، وإنما الموت يقطع طريق السلوك فيبقى كل إنسان بعد الموت على الرتبة التى حصلها فى مدة الحياة إذ يموت المرء على ماعاش عليه

(العلامة الثانية) أن يكون حاضر القلب مع الله فى كل حال حضوراً ضروريا غير متكلف بل حضوراً يعظم تلذذه وأن يكون الحضور انكساراً وضراعة وخضوعا لما انكشف عنده من جلال الله وبهائه ولا يفارق ذلك فى أطواره وأحواله وإن اشتغل بضروريات بدنه من تناول طعام وقضاء حاجة وغسل ثوب وغيره بل يكون مثاله فى جميع الأحوال مثال عاشق سهر فى انتظار معشوقه مدة وتعب فيه زمانا ثم قدم عليه معشوقه فاستبشر به فاستولى عليه قضاء حاجته فلزمه ضرورة مفارقته وقصد بيت الماء فيفارقه ببدنه مضطراً والقلب حاضر عنده حضوراً لو خوطب فى أثناء ما هو فيه لم يسمعه لشدة استغراق فكره بمعشوقه ولا يكون ما هو فيه صارفا عن قرة عينه وهو مكره فيه ، فالسالك ينبغى أن يكون كذلك فى أشغاله الدنيوية بل لا يكون له شغل سوى ضروريات بدنه وهو فى ذلك مصروف القلب إلى الله عز وجل مع غاية الإجلال والتواضع ، وإذا لم يبعد أن تتحرك شهوة الجماع تحريكا هذه صفته عند من استولى عليه الشهوة ووقع فى عينه جمال صورة آدمى خلقت من نطفة قذرة مذرة ويصير

على القرب جيفة قذرة وهو فيما بين ذلك يحمل العذرة فكيف يتعذر ذلك فى إدراك جلال الله وجماله الذى لا نهاية له ، وعلى الجملة فلا يتم سلوك هذا الطريق إلا بحرص شديد وإرادة تامة وطلب بليغ ، ومبدأ الحرص والطلب إدراك جمال المطلوب الموجب للشوق والعشق ، ومبدأ درك جمال المطلوب النظر وتحديق بصر العين نحوه إعراضا عن سائر المبصرات — فكذلك بقدر مايلوح لك من جلال الله عز وجل ينبعث شوقك وحرصك وبحسبه يكون سعيك وانبعاثك ، ثم قد يزداد العشق بطول الصحبة إذا كان يلوح فى أثنائها محاسن أخلاق كانت خفية من قبل فيتضاعف العشق فكذلك مايلوح من بهاء الحضرة الإلهية وجلالها فى أول الأمر ربما كان ضعيفا بضعف إدراك المريد المبتدى ولكن ينبعث منه طلب وشوق فلا يزال يواظب على الفكر فى ذلك الجمال بسببه فيطلع على مزايا فيتضاعف فى كل وقت عشقه وكما يطلب العاشق القرب من معشوقه — فكذا المريد يطلب القرب من الله تعالى لا أن ذلك قرب بمكان أو بتماس سطوح الأجسام أو بكمال جمال صورة بأن يصير مبصرا حاضرا فى القوة الباصرة صورته — وهذا القرب قرب الكمال لا فى المكان والأمثلة لا تخيل من هذه المعانى إلا شيئا بعيدا ولكن تشبيه ذلك بعشق التلميذ أستاذه وطلبه القرب منه فى كماله أصدق فى التخيل فإنه يتقرب إليه بحركته فى التعلم ولا يزال يقرب منه قليلا قليلا وغايته رتبته ، وقد يكون ذلك ممكنا وقد يكون فى بعض الأحوال متعذراً ولكن الترقى من الرتبة التى هو بسببها فى

البعد ممكن فيزداد قربا بالنسبة والبلوغ ههنا غير ممكن ، ولكن السفر عن أسفل السافلين بقصد جهة العلو ممكن ، وقد يكون الممثل فى عين التلميذ رتبة مقيدة لا أنه يتلبس بعشق رتبة أستاذه ولكن يشتاق إلى الترقى درجة درجة فلا يتشوق إلى الأقصى دفعة — فإذا نال تلك الرتبة طمحت عينه إلى ما فوقها — فكذلك من ليس عالما ينبغى له التشبه بالعلماء الذين هم ورثة الأنبياء ، والعلماء يتشبهون بالأولياء والأنبياء بالملائكة حتى تمحى عنهم الصفات البشرية بالكلية فينقلبون ملائكة فى صورة الناس . والملائكة أيضا لهم مراتب والاعلى مرتبة معشوق الأدنى ومطمح نظره والملائكة المقربون هم الذين ليس بينهم وبين الأول الحق واسطة ولهم الجمال الأطهر والبهاء الأتم بالنسبة إلى من دونهم من الموجودات الكاملة البهية ، ثم كل كمال وجمال بالنظر إلى جمال الحضرة الربوبية مستحقر — فهكذا ينبغى أن يعتقد التقرب إلى الله عز وجل لا بأن تقدره فى بيت فى الجنة فتقرب من باب البيت فيكون قربك بالمكان تعالى عنه رب الأرباب ولا بأن تهدى إليه هدية بعبادتك فيفرح بها ويهتز لها فيرضى عنك كما يتقرب إلى الملوك بطلب رضاهم وتحصيل أغراضهم فيسمى ذلك تقربا تعالى الله وتقدس عن المعنى الذى يتصف الملوك به من السخط والرضى والابتهاج بالخدمة والاهتزاز للخضوع والانقياد والفرح بالمتابعة ، واعتقاد جميع ذلك جهل فإن قلت فقد اعتقد أكثر العوام ذلك فما أبعد عن التحصيل من يطلب العنبر من دكان الدباغ وكيف تطمع فى رتبة وأنت

تعرف الحق بالرجال بل أنت تعرف الحق بالحمر فلا فرق بين العوام الذين لم يمارسوا العلوم وبين حمر مستنفرة فرت من قسورة أما تراهم كيف اعتقدوا فى الله تعالى أنه جالس على العرش تحت مظلة خضراء إلى تمام ما اعتقدوه فى المشتبهات فأكثر الناس مشبهة ولكن التشبيه درجات ، منهم من يشبه فى الصورة فيثبت اليد والعين والنزول والانتقال ، ومنهم من يثبت السخط والرضى والغضب والسرور والله تعالى مقدس عن جميع ذلك ، وإنما أطلقت هذه الألفاظ فى الشرع على سبيل وبتأويل يفهمهامن يفهما وينكرها من ينكرها ولو تساوى الناس فى الفهم لبطل قوله عليه السلام (رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ورب حامل فقه ليس بفقيه) ولنتجاوز هذا الكلام فإنه سلسلة المجانين ويحل قيود الشيطان .

(بيان معنى المذهب واختلاف الناس فيه)

لعلك تقول كلامك فى هذا الكتاب انقسم إلى مايطابق مذهب الصوفية وإلى مايطابق مذهب الأشعرية وبعض المتكلمين ولا يفهم الكلام إلا على مذهب واحد فما الحق من هذه المذاهب فإن كان الكل حقا فكيف يتصور هذا وإن كان بعضه حقا فما ذلك الحق ، فيقال لك إذا عرفت حقيقة المذهب لا تنفعك قط إذ الناس فيه فريقان ، فريق يقول المذهب اسم مشترك لثلاث مراتب (إحداها) مايتعصب له فى المباهاة والمناظرات (والأخرى) مايسار به فى التعليمات والإرشادات (والثالث) مايعتقده الإنسان فى نفسه مما انكشف له من النظريات ، ولكل كامل ثلاثة مذاهب بهذا الاعتبار ، فأما المذهب

بالاعتبار الأول فهو نمط الآباء والأجداد ومذهب المعلم ومذهب أهل البلد الذى فيه النشوء — وذلك يختلف بالبلاد والأقطار ويختلف بالمعلمين ، فمن ولد فى بلد المعتزلة أو الأشعرية أو الشفعوية أو الحنفية انغرس فى نفسه منذ صباه التعصب له والذب دونه والذم لما سواه ، فيقال هو أشعرى المذهب أو معتزلى أو شفعوى أو حنفى ، ومعناه أنه يتعصب أى ينصر عصابة المتظاهرين بالموالاة ويجرى ذلك مجرى تناصر القبيلة بعضهم لبعض ، ومبدأ هذا التعصب حرص جماعة على طلب الرياسة باستتباع العوام ولا تنبعث دواعى العوام إلا بجامع يحمل على التظاهر فجعلت المذاهب فى تفصيل الأديان جامعا فانقسم الناس فرقا وتحركت غوائل الحسد والمنافسة فاشتد تعصبهم واستحكم به تناصرهم وفى بعض البلاد لما اتحد المذهب وعجز طلاب الرياسة عن الاستتباع وضعوا أموراً وخيلوا وجوب المخالفة فيها والتعصب لها كالعلم الأسود والعلم الأحمر فقال قوم الحق هو الأسود وقال آخرون لا بل الأحمر وانتظم مقصود الرؤساء فى استتباع العوام بذلك القدر من المخالفة وظن العوام أن ذلك مهم وعرف الرؤساء الواضعون غرضهم فى الوضع (المذهب الثانى) ما ينطبق فى الإرشاد والتعليم على من جاءه مستفيداً مسترشداً — وهذا لا يتعين على وجه واحد بل يختلف بحسب المسترشد فيناظر كل مسترشد بما يحتمله فهمه فإن وقع له مسترشد تركى أو هندى أو رجل بليد جلف الطبع وعلم أنه لو ذكر له أن الله تعالى ليس ذاته فى مكان وأنه ليس داخل العالم ولا خارجه ولا متصلا بالعالم

ولا منفصلا عنه لم يلبث أن ينكر وجود الله تعالى ويكذب به فينبغى أن يقرر عنده أن الله تعالى على العرش وأنه يرضيه عبادة خلقه ويفرح بها فيثيبهم ويدخلهم الجنة عوضا وجزاء . وإن احتمل أن يذكر له ما هو الحق المبين يكشف له فالمذهب بهذا الاعتبار يتغير ويختلف ويكون مع كل واحد على حسب ما يحتمله فهمه (المذهب الثالث) ما يعتقده الرجل سراً بينه وبين الله عز وجل لا يطلع عليه غير الله تعالى ولا يذكره إلا مع من هو شريكه فى الاطلاع على ما أطلع أو بلغ رتبة يقبل الاطلاع عليه ويفهمه — وذلك بأن يكون المسترشد ذكياً ولم يكن قد رسخ فى نفسه اعتقاد موروث نشأ عليه وعلى التعصب له ولم يكن قد انصبغ به قلبه انصباغا لا يمكن محوه منه ويكون مثاله ككاغد كتب عليه ما غاص فيه ولم يمكن إزالته إلا بحرق الكاغد وخرقه — فهذا رجل فسد مزاجه ويئس من صلاحه فإن كل ما يذكر له على خلاف ما سمعه لا يقنعه بل يحرص على أن لا يقنع بما يذكر له ويحتال فى دفعه، ولو أصغى غاية الإصغاء وانصرفت همته إلى الفهم لكان يشك فى فهمه فكيف إذا كان غرضه أن يدفعه ولا يفهمه فالسبيل مع مثل هذا أن يسكت عنه ويترك على ماهو عليه فليس هو بأول أعمى هلك بضلالته — فهذا طريق فريق من الناس ، وأما الفريق الثانى وهم الأكثرون يقولون المذهب واحد هو المعتقد وهو الذى ينطق به تعليما وإرشاداً مع كل آدمى كيفما اختلفت حاله وهو الذى يتعصب له وهو إما مذهب الأشعرى أو المعتزلى أو الكرامى أو أى مذهب من المذاهب والأولون

يوافقون هؤلاء على أنهم لو سئلوا عن المذهب أنه واحد أو ثلاثة لم يجز أن يذكر أنه ثلاثة بل يجب أن يقال إنه واحد — وهذا يبطل تعبك بالسؤال عن المذهب إن كنت عاقلا فإن الناس متفقون على النطق بأن المذهب واحد ، ثم يتفقون على التعصب لمذهب أبيهم أو معلمهم أو أهل بلدهم ولو ذكر ذاكر مذهبه فما منفعتك فيه ومذهب غيره يخالفه وليس مع واحد منهم معجزة يترجح بها جانبه فجانب الالتفات إلى المذاهب واطلب الحق بطريق النظر لتكون صاحب مذهب ولا تكن فى صورة أعمى تقلد قائدا يرشدك إلى طريق وحواليك ألف مثل قائدك ينادون عليك بأنه أهلكك وأضلك عن سواء السبيل ، وستعلم فى عاقبة أمرك ظلم قائدك فلا خلاص إلا فى الاستقلال .

خذ ماتراه ودع شيئا سمعت به فى طالع الشمس مايغنيك عن زحل

ولو لم يكن فى مجارى هذه الكلمات إلا ما يشككك فى اعتقادك الموروث لتنتدب للطلب فناهيك به نفعا إذ الشكوك هى الموصلة إلى الحق فمن لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر ومن لم يبصر بقى فى العمى والضلال نعوذ بالله من ذلك وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

فهرس كتاب ميزان العمل

كتاب

الاربعين فى أصول الدين

تأليف الأمام حجة الاسلام الغزالى

كتاب

منهاج العابدين

ومعه

الكشف والتبيين وبداية الهداية

تأليف الأمام حجة الاسلام الغزالى